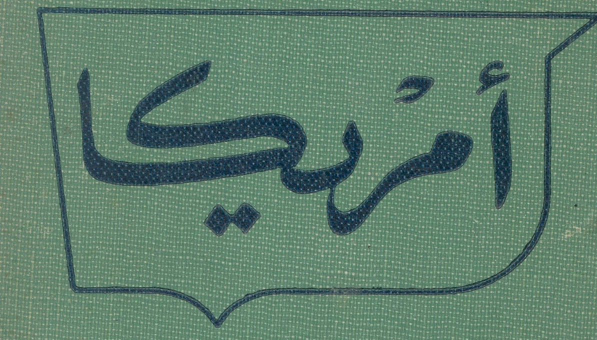
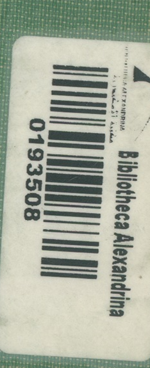

أمريكا





تأليف

ستيفن فنسنت بنيه

STEPHEN VINCENT BENÉT

ترجمه من الإنجليزية

عبد العزيز عبد المجيد



القاهرة

مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات

١٩٤٥

★ ★ ★

نشر هذا الكتاب بالعربية لأول مرة في يوليو سنة ١٩٤٥

ونشره مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات
١ ميدان قصر الدوبارة القاهرة
مصر

طبع وجلد في دار المعارف
بالقاهرة



★★★

خرائط

محتويات الكتاب



الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٤٥

تبين هذه الخريطة الولايات الثماني والأربعين والمدن الكبرى فيها

أمـــريــكا

هنالك بلاد هى بلاد الرجاء ، بلاد هى بلاد الحرية ، بلاد نزح إليها من كل أمة من أمم العالم أناس متباينون ، ولكنهم يعيشون بها الآن فى وئام ، وتحت سماء واحدة رحبة ، وهم يذهبون إلى أى معبد يشاءون ، كاثوليكياً كان هذا المعبد أو بروتستانتياً أو يهودياً أو إسلامياً أو بوذياً ، دون أن يضطهد منهم أحد بسبب دينه . وسكان هذه البلاد رجالاً ونساء ينتخبون من يشاءون ليحكمهم ، وهم يسقطون هؤلاء الحكام بالتصويت لا بالثورة إذا أدركوا أنهم لم يحسنوا صنعاً ، وهم ينتقدون صراحة فى كل وقت حكومتهم والطريقة التى تدير بها دفة الأمور ، ولكنهم مع ذلك يظلون مخلصين لمبدأ واحد ، و بلاد واحدة ، وعلم واحد .

أما العلم فهو علم النجوم والأشرطة .

وأما البلاد فهى الولايات المتحدة .

وأما المبدأ فهو الديمقراطية .

وليست هذه البلاد فردوساً أرضياً ، ولا جنة كجنة عدن ، ولا هى قد بلغت نهاية الكمال . إنها لا تدعى لنفسها شيئاً من ذلك . إنها لم تحل بعد كل مشكلة من المشاكل المرتبطة بكيف يجب

أن يعيش السكان رجالاً ونساء . وقد أخطأت فى الماضى فى إدارة أمورها الداخلية كما أخطأت فى الأمور العالمية . ولكنها مع ذلك تتطلع دائماً إلى المستقبل ، مستقبل يعيش فيه الرجال والنساء أحراراً ، يتوافر فيه الغذاء والعمل ، وتتوافر فيه الطمأنينة والحرية لبنى الإنسان .

إنها لا تريد أن تحكم العالم ، أو أن تكون لها إمبراطورية أمريكية يصير فيها الأمريكيون الشعب السيد وغيرهم الشعوب المسودة . وإنك إذا سألت أمريكياً قحاً عما إذا كان يؤمن بوجود شعب سيد ، نظر إليك مستغرباً أو ضحك كثيراً ، فإن الأمريكيين لا يؤمنون بنظرية سيادة شعب على غيره .

إنها بلاد حرب وكفاح ، نشأت فى حروب واتحدت فى حروب . وهى مستعدة دائماً وراغبة فى أن تقاتل من أجل ما تؤمن به من عقائد راسخة . إنها لم تخسر قط حرباً واحدة ، ولكنها لا تعتقد أن الحرب والروح الحربية هما غرض الإنسان وهدفه . إنها تحيي ذكرى العظماء من قوادها الحربيين أمثال واشنطن Washington ، وجرانت Grant ، ولى Lee ، كما تمجد أولئك الذين يحاربون اليوم من أجلها ، ولكن كل واحد من هؤلاء الرجال حارب من أجل شيء أسمى من الفتح . فلما وضعت الحرب أوزارها قالوا : دعونا نعش فى سلام ، دعونا نبن

ونعمر فى الأرض ، دعونا نعمل وننشىء ، دعونا ننتج شيئاً لم يكن من قبل ، دعونا نجعل بلادنا مكاناً صالحاً يستطيع أن يعيش فيه الناس فى مودة وحسن جوار .

إن أمريكا لبلاد غريبة من بعض نواحيها . نعم إنها حديثة بين أمم العالم ، ولكن نظام الحكم فيها قد امتد به العهد إلى ما ينيف على قرن ونصف . وله من المرونة ما يجعله ملائماً للظروف المتغيرة من غير إحداث تغييرات أساسية فيه . ويجلس الآن فى البيت الأبيض رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثون ، كما أن الكونجرس منعقد الآن فى دورته التاسعة والسبعين ، وكلاهما وليد رغبة الشعب . ومنذ اليوم الذى صار فيه دستور الولايات المتحدة قائماً استمر الحكم فى يد الشعب ، وظلت رغبة الشعب هى السائدة . ولقد تمتع الشعب الأمريكى دائماً منذ البدء بفرصة إصدار حكمه على الأمور ، وعمل أخطاء وإصلاحها ، ثم السير إلى الأمام قدماً : ولا يقصد بكلمة « الشعب » فى أمريكا طبقة بذاتها ، أو طائفة ممتازة أو جماعة معينة من الناس ، بل يقصد بها أنا وأنت وجارنا ، يقصد بها الجزار والخباز والمزارع والعامل والمحامى والطبيب وربة البيت . إن كلمة « الشعب » تعنى كل فرد من أفراد الأمة .

وبفضل هذا النوع من الحكم أصبحت الولايات المتحدة أمة

راقية غنية ذات ثروة صناعية وغذائية عظيمة . غير أنه إذا نزلت في أية جهة من جهات العالم كارثة فيضان أو حريق أو زلزال أو نكبة من النكبات ، بادرت الولايات المتحدة بإرسال الطعام والأدوية الأمريكية إليها ، وذهب الأطباء والمرضات الأمريكان لنجدتها . لقد ذهبوا هنالك لاعتقادهم أن هذا واجب عليهم .

وأما أعداؤنا فلا يرون فى الولايات المتحدة إلا خليطاً من ذوى الملايين ورجال العصابات والضعفاء ونجوم السينما والسياسيين الفاسدين والنساء الكسالى وعامة الشعب الذين عضهم الجوع وتملكتهم الأثرة . وفى الحق أننا معشر الأمريكيين لا يهمنا أن يقول أعداؤنا ذلك عنا فإنهم لا يمكنهم أن يوجهوا إلى هذه البلاد التى نؤمن بها ونحبها انتقاداً أكثر عنفاً وشدة مما سبق أن وجهه إليها أمريكيون أوفياء مخلصون فى الماضى وفى الحال .

وكل مجتند أمريكى فى هذه الحرب يسير مندفعاً بروح الأمة التى يحارب من أجلها . نعم قد يسىء بعض الأفراد المجندين فهم هذه الروح، أو ينسونها، أو لا يحسنون التعبير عنها، بل قد يخونونها. ورغم هذا فهى باقية . ونحن لا ندعى أننا قد أرسلنا إلى الميدان جيشاً من الملائكة . فما هم إلا أمريكيون عاديون نشأوا فى جو من الحرية وهم يحاربون من أجلها . وهذا كل ما فى الأمر . فمنهم طويل القامة ومنهم قصيرها ، ومنهم أسمر الوجه ومنهم أبيضه،

ومنهم الثرثار ومنهم الصامت ، ومنهم من يعمل بيديه ومن يعمل بعقله ، ومنهم من جاء من بلدة صغيرة أو مدينة كبيرة أو ضيعة هادئة . فهم رجال من جميع المشارب والبيئات ، ولكن تحدوهم جميعاً روح واحدة سواء أمكنهم أن يتحدثوا عنها أم لا . نعم هنالك روح وهنالك فكرة .

ما هى هذه الروح ؟ ما هى هذه الروح الأمريكية ؟ ما هى هذه الفكرة الأمريكية ؟

كيف بدأت ؟ وماذا أوجدها ؟ وماذا تدل عليه الولايات المتحدة ، لا باعتبارها أمة كبيرة غنية تنتج كثيراً من السيارات وآلات الراديو والثلاجات والصور المتحركة وأدوات المراحيض ، ولكن باعتبارها دولة قوية حية فى العالم ؟

لننظر إلى ما سجله التاريخ ، لننظر إلى الحقائق . فإنك إذا أردت أن تعرف إنساناً على حقيقته تعين عليك أن تسأل عن أبويه وأسرته والمنزل الذى يعيش فيه والطريقة التى نشأ عليها . فلنفعل ذلك إذاً مع الولايات المتحدة . كيف بدأت ؟ ولم ؟

البذور الأولى عبر المحيط

بدأت الولايات المتحدة مجموعتين صغيرتين من أناس ذوى عزائم قوية كالحوا كفاح الأبطال فى أرض موحشة برية . وقد نزلت إحدى هاتين المجموعتين فى چيمستون Jamestown من ولاية ڤرچنيا Virginia ، والأخرى فى پليموث Plymouth من ولاية ماساتشوسيتس Massachusetts

ولم يكن هؤلاء القوم أول من استوطن أمريكا الشمالية إذ سبقهم إليها آخرون بأكثر من قرن . فقد نزل بها من قبل المستكشفون الإسبانيون العظماء ، دى سوتو De Soto وكورونادو Coronado وكابيزا دى ڤاكا Cabeza de Vaca ، وهاموا فى فيافيها وتحملوا المشاق وعادوا بأخبار سهولها المترامية ، وأنهارها العظيمة ، وغاباتها التى كان يقطنها الهنود الحمر . كما أن صيادى السمك الفرنسيين أقوياء الشكيمة كانوا قد اكتشفوا منطقة الصيد العظمى التى تقع فى شمال المحيط الأطلنطى . وكانت ولاية فلوريدا Florida إذ ذاك مستوطنة وسواحل كندا معروفة للملاحين الشجعان . وكل من مدينة سينت أوجستين Saint Augustine بولاية فلوريدا ومدينة سانتا فى Santa Fe بولاية

نيو مكسيكو New Mexico أقدم من مدينتى چيمستون وپليموث . ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يبدأ تاريخ الولايات المتحدة فى هاتين البقعتين الواقعتين فى منطقة ساحل المحيط الأطلنطى .

لقد حاول من قبل مستوطنون من الإنجليز أن يستوطنوا هذه البلاد ولكنهم فشلوا . ونزلت جالية رالى Raleigh فى روانوك Roanoke فابتلعتها الغابات ولم يبق لها من أثر سوى اسم كرواتان Croatan المحفور على جذع شجرة هناك وسوى أسطورة تتردد على الألسن . ولكن فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٠٧ جاءت إلى شبه جزيرة منخفضة السطح واقعة فى نهر چيمس ثلاث سفن صغيرة ، ولم يكن غرضها الغزو أو السلب ، بل إنزال رجال يستوطنون الأرض .

فأى الرجال كان هؤلاء ؟ ولم وفدوا ؟ وما هى القوانين والعادات التى جاءوا بها من العالم القديم إلى العالم الجديد ؟

لقد كانوا مغامرين . لقد جاءوا ليبحثوا عن الذهب والثراء العاجل كما فعل كثيرون غيرهم فى أماكن عديدة . كانوا مبعوثى شركة ڤرچنيا التجارية التى رمت إلى جلب مكاسب من وراء هذه المغامرة . هذه حقيقة من الحقائق .

على أنهم وإن كانوا مغامرين لم يكونوا مجرد بعثة حربية

خاضعة للقوانين العسكرية . فإنهم أرسلوا إلى هنالك ليكونوا مستوطنين ، ليبنوا مساكن ، و يعبّدوا طرقاً ، و ينشئوا كنائس ، وليختبروا الأرض وصلاحيتها لسكنى الإنجليز . وهذه مسألة ذات شأن . نعم لم يكونوا أرقاء ولكنهم كانوا رجالاً أحراراً . وهذه مسألة أخرى لها شأن أيضاً .

ولدينا العهد الملكى وخطاب التعليمات التى استرشد بها هؤلاء الرجال ، وفى هاتين الوثيقتين أمران هامان .

أما الأول فهو أنهم و إن كانوا ذاهبين إلى أطراف الأرض — كما كان الاعتقاد سائداً عن أمريكا حينذاك — ستظل حقوقهم مكفولة لهم كإنجليز حتى فى تلك الأطراف . وكما جاء فى قول ملك الإنجليز يجب « أن يكون لهم جميع الحريات وحق التصويت فى الانتخاب والامتيازات فى أية جهة من ممتلكات التاج الأخرى ، وأن يتمتعوا بها ، و يتعاملوا كما لو كانوا مولودين وقاطنين فى مملكتنا إنجلترا نفسها » . و بعبارة أخرى كان للرجل الذاهب إلى چيمستون أن يتمتع بنفس الحقوق التى يتمتع بها المقيم فى إنجلترا . فلا يجوز أن يستغل استغلالاً فاحشاً ، أو يضطهد و يظلم . وله أن يلجأ إلى القانون وأن يتمتع بكل ما يتمتع به الإنجليزى فى بلاده من حقوق .

أما ثانى الأمرين فهو أن يتولى الحكم بين هؤلاء الرجال فى

ڤرچنيا رئيس له مجلس شورى يسدى إليه النصح ؛ فلا يكون هنالك حكم دكتاتورى .

وهكذا نزل هؤلاء الرجال — وعددهم مائة وخمسة — إلى چيمستون وتاريخهم حافل بضروب الشجاعة والمقاساة والمشقات . فإن هؤلاء الإنجليز ذوى الوجوه النضرة قد جاءوا إلى أرض غريبة عليهم كغرابة ما بالقمر من فوهات بركانية وجبال علينا اليوم . لقد كان كل شىء جديداً وغريباً عليهم: الطيور والحيوانات والأزهار والهنود الحمر وحرارة الصيف حتى طعم الماء الذى فى النهر . لقد تولاهم الرعب والدهشة وشعروا بحنين إلى وطنهم كالأطفال . لقد ماتوا من الحمى والجوع وسهام الهنود . لقد حاربهم الهنود تارة وصادقوهم تارة أخرى ولم يدر المستوطنون متى الوئام ، ومتى الخصام ، ولماذا . وقد وصلت الحال بالبقية الباقية منهم أن يلجأوا فى سنة من السنين إلى أن يهجروا چيمستون ويفروا فى قوارب حملتهم من النهر نحو المصب . فلما دخلوا فى الخليج التقوا بسفن قادمة من إنجلترا لمساعدتهم ، فرجعوا بها إلى چيمستون ليبدأوا جهادهم مرة أخرى . وقد تطلب ذلك منهم شجاعة عظيمة واستبسالاً ولكنهم مع ذلك رجعوا .

وكان من بين أسمائهم سِمث Smith وپرسى Percy وبراون Brown وألكوك Allcock ومِدْوِنتر Midwinter وسارْچنت

Sergeant ومارتن Martin ولقد كانوا البذور التى تطايرت عبر الماء ، فنهم كثير هلك ، وقليل بقى ونما وأينع .

لم يجدوا ذهباً ولم يكتسبوا مالاً عاجلاً ، ولكن بعد انقضاء اثنتى عشرة سنة فى كد وكفاح أنشأوا مستعمرة فجاءت إليها النساء وولدن البنين والبنات .

وفى اليوم الثلاثين من شهر يوليو سنة ١٦١٩ اجتمع مجلس فرجنيا الأول فى كنيسة جيمستون الخشبية على حافة اللانهائية . وقد حضر يومذاك الحاكم ومستشاروه واثنان وعشرون نائباً يمثلون إحدى عشرة جالية بالمستعمرة . وفى تلك الأيام الحارة من شهر يوليو عمل المجتمعون متعاونين وأقروا قوانين ولوائح عدة كانت ضرورية لهم . فمثلاً لم يكن لأحد أن يذبح الماشية إلا بإذن من الحاكم إذ كانت الماشية نادرة حينذاك . وإذا سرق أحد قارباً من جاره أو من أحد الهنود عوقب على فعلته . وكان على القسس أن يقدموا كل عام تقريراً عما قاموا به من عقود الزواج ومراسيم الموتى والتعميد . وكان غير ذلك من القوانين . ومما يلفت النظر هنا أن اثنين وعشرين رجلاً غير الحاكم ومستشاريه لعبوا دوراً فى وضع هـذه القوانين ؛ فقد اجتمعوا وتناقشوا وقالوا ما شاءوا أن يقولوا عن حياتهم والطريقة التى أرادوا أن تسير الأمور وفقاً لها .

نعم لم تكن الحكومة بعد متمتعة بالحكم الذاتى — لم تكن كذلك قط — ولكن فكرة كانت قد نبتت ؛ إذ رأى هؤلاء الرجال الذين عبروا المحيط ليكافحوا هذه البرية الموحشة أن لهم الحق فى أن تسمع كلمتهم فى الطريقة التى يريدون أن يحكموا بها . واعترفت لهم الحكومة الإنجليزية بهذا الحق إذ اعتبرته أمراً يقبله العقل السليم . وكان لا بد أن تنشأ فى المستقبل مخاصمات وصعوبات كثيرة بين الحاكم والنواب ، ولكن ظل النواب يمثلون سكان المستعمرة و يدافعون عن مصالحها. وسيرد ذكرهم مرة أخرى . على أن بذور الحرية قد أخذت تمد جذورها فى تلك الأرض الخصبة بين صفوف أشجار التبغ وتحت سماء ڤرچنيا الدافئة.

وكان فى أثناء تلك الفترة أن بدأ أمر آخر سجله لنا چون پورى John Pory بعد ما وصل من إنجلترا سنة ١٦١٩ ليكتب وصفاً عن أحوال ڤرچنيا فقد ذكر :

« إن راعى البقر هنا يرتدى فى أيام الأحد رداء من الحرير الزاهى اللماع ، وإن زوجة العامل من عمال مناجم الفحم تلبس قبعة يزينها عقد من اللؤلؤ . »

هذا هو الأمر الآخر .

لم يهم العالم الجديد فى قليل ولا كثير ما إذا كان النازح إليه نبيلاً قبل قدومه أو راعى بقر . فإذا ما صادف نجاحاً فى هذا العالم

الجديد فإن لزوجته أن تلبس ثوباً من الحرير دون استغراب من أحد . ولطالما كان هذا الأمر جزءاً من الحكم الأمريكى ؛ وهو أن يعطى كل فرد فرصة ليظهر مواهبه وينبه شأنه فى العالم ، وأن لافضل لأحد على غيره بسبب ما لأبويه من مال أو ألقاب أو سلطان .

والآن دعنا نذهب شمالاً أبعد من ألف ميل إلى شاطىء أشد قسوة وأكثر برودة ، إلى شاطئ نيو إنجلند New England فى الشتاء .

ففى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٦٢٠ نزل إلى ذلك الساحل جماعة المهاجرين Pilgrims من سفينة اسمها « مَيفلَور » Mayflower

من كان هؤلاء المهاجرون ؟ ولم نزحوا إلى أمريكا ؟ أكانوا مغامرين ، أم فاتحين ، أم منقبين عن الذهب ؟

كلا، إنهم لم يكونوا شيئاً من ذلك قط. فقليلٌ ممن حملتهم هذه السفينة جاءوا بغية الحصول على أرض وإنشاء مزرعة تكون ملكاً لهم . والسواد الأعظم جاءوا لسبب آخر ، جاءوا لأنهم أرادوا أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة ، طريقة أساسها البساطة والإيمان الخالص ، طريقة غير تلك التى تتبعها الكنيسة المعترف بها فى إنجلترا حينذاك .

كانوا فى الغالب رجالاً ذوى أسرات . فقد أحضروا معهم نساءهم وأطفالهم فى سفينة صغيرة تتلاعب بها الأمواج . واستغرقت رحلتهم أربعة وستين يوماً ، وولد أثناء هذه الرحلة طفل كما ولد طفلان آخران عقب الوصول مباشرة . وكان عدد الجماعة لا يعدو المائة بكثير . نعم لقد ساعدت هؤلاء المهاجرين فى مغامرتهم شركة إنجليزية أخرى بأموال المساهمين فيها . ولكن كان العمودُ الفقريُّ لهذه المغامرة هو أولئك الرجال الهادئين ذوى الأسرات ، الذين أحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم إلى ساحل فى أقصى الأرض .

لماذا أقدموا على هذا العمل الجنونى ؟ ولماذا خاطروا هذه المخاطرة ؟ إنهم لم يؤمروا أو يرشوا لعمل ذلك . لقد تجشموا العناء والألم طائعين ، واقتلعوا أنفسهم من بيوتهم تاركين وراءهم كل ما كان محبَباً إليهم : من ذكريات الطفولة إلى تلك الأدوات المنزلية التى يراها الإنسان وتعلق بذاكرته، ولكنه لا يستطيع أخذها معه فى سفره لضيق المكان .

أرادوا أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة . نعم لقد عقدوا العزم على أن يعبدوا الله كما يشاءون .

وفى الحقيقة أنهم بدأوا رحلتهم فى شمال إنجلترا قبل ذلك بسنوات . وكان منهم المزارعون ، وأجراء الحقل ، ووكيل مكتب البريد ، والواعظ ، والصبى الذى تعود أن يطيل السهر فى قراءة الكتب .

وكانوا قد رفضوا أن يتعبدوا على الطريقة التى رسمتها لهم الكنيسة ، وأصرّ أولو الأمر من الإنجليز على أنهم يجب عليهم أن يفعلوا ذلك فرفضوا ، ونالهم من جراء الرفض صعوبات . فرحلوا إلى هولندا وعاشوا هنالك عيشة هادئة معتدلة ، ذلك لأنهم كانوا قوماً كادحين مستقيمين ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتطلعون إلى مكان خاص بهم يعيشون فيه كما يشاءون . و بعد مضى عدة سنوات، و بعد أن كافحوا كفاحاً عظيماً، وجدوا المكان المنشود عبر المحيط . وما إن وقع نظرهم عليه حتى امتلأت قلوبهم فرحاً .

ولكن من سيكون حاكمهم فى هذه الأرض الجديدة ؟ وما هى الطريقة التى ستدار بها شئونهم ؟

إنه لأمر يحتاج لشىء من الإيضاح .

لم يكن هؤلاء المهاجرون خداماً أو أرقاء أو مأجورين لأصدقائهم الأغنياء بإنجلترا ، بل كانوا شركاء فى مشروع واحد . فقد دفع المتمول بإنجلترا عشرة جنيهات ثمناً لكل سهم ، أما المهاجر الذى لم يكن ذا مال فقد ساهم بنفسه ، ساهم برغبته فى أن يعبر المحيط و يشترك فى بناء مستعمرة . وكان الاتفاق أنه عند انقضاء سبع سنوات يقسم رأس المال والأرباح بين الشركاء بنسبة ما ساهموا به . فإذا ما سارت الأمور بنجاح نال كل شريك ما يريد ؛ نال المتمول الربح ، وحظى غير المتمول بأرض تأويه وبيت يسكن فيه .

هذا، وقد اتفق المهاجرون على أمر ذى شأن هام، وهو أنه بمجرد أن يضعوا أقدامهم فى أمريكا يحكمون أنفسهم بأنفسهم . فإذا رأى المتمولون بإنجلترا إسداء النصيحة و إبداء الرأى فعلوا ، ولكن لم يكن لهم حق إصدار أمر أو نهى ينفذ . وكان لهم أن يسألوا عن الأرباح وأن يقدموا المعونة وأن يرسلوا إليهم رجالاً آخرين . ولكن لم يكن لهم أن يرسموا للمهاجرين الطريقة التى تدار بها شئون المستعمرة بعد تكوينها .

وكان ثمة شيء آخر لا بد من عمله . كان المهاجرون إنجليزاً ، وكانوا ذاهبين إلى ما وراء البحار ، فإذا هم أسسوا مستعمرة فستكون إذاً مستعمرة إنجليزية . ولذلك فقد حاولوا — قبل أن يبحروا — أن يحصلوا من جيمس ملك إنجلترا على عهد يسجل موافقته الرسمية على هذه البعثة .

لم يوافق الملك على أن يرتبط بأى عهد ، ولذلك اضطروا إلى الاستغناء عنه ، ولكنه أعلمهم أنه سيتركهم وشأنهم إن هم أحسنوا التصرف ، ولم يخلقوا متاعب ومشاكل . هذا كان موقفه منهم ؛ إنه لم يشأ اضطهادهم كما لم يرد أن يشملهم ببركته الملكية .

وأخيراً أبحر المهاجرون وليس لديهم اعتراف رسمى بكيانهم اللهمّ إلا امتيازاً بحقهم فى الاستيطان ، لم يحصلوا عليه من الملك

ولكن من شركة ڤرچنيا ، على أن يكون هذا الامتياز قانونياً وقائماً ما داموا مستوطنين ڤرچنيا .

ولكن المهاجرين لم يستوطنوا ڤرچنيا كما كان قصدهم فى البدء بل استوطنوا نيو إنجلند . لقد عزا المؤرخون تغيير الخطة لأسباب شتى ، ولكن أبسط هذه الأسباب أسهلها قبولاً : مكث المهاجرون أربعة وستين يوماً فى سفينة مكتظة بهم ، ثم رأوا أرضاً يابسة . قد لا تكون هذه الأرض جنة ، وقد لا تكون خصبة التربة أو حارة المناخ كڤرچنيا ، ولكنها أرض وكفى . كانت أرضاً وعرة ، أرضاً موحشة ، ولكنها ملأت عليهم حواسهم ؛ فقد استطاعوا أن يشموها ويلمسوها ويذوقوها ويمشوا على يابسها . فلا عجب أن صمموا على البقاء هنالك ، وألا يذهبوا أبعد من ذلك .

ولذا فبمجرد أن وطأت أقدامهم نيو إنجلند أصبح الامتياز المعطى لهم من شركة ڤرچنيا عديم القيمة ، إذ لم يكن للشركة أية حقوق فى نيو إنجلند . وكان على ظهر السفينة « مَيفلَور » رجال غير هؤلاء المهاجرين أخذوا يتمتمون قائلين إنهم أصبحوا وليس لأحد سلطان عليهم .

لذلك اجتمع المهاجرون وأصدقاؤهم – أولئك الرجال الأحرار الذين يعبدون الله — فى حجرة السفينة وأعدوا وثيقة تعرف باسم « ميثاق المَيفلَور » هذا نصها :

« باسم الله . نحن الموقعين على هذا ، الرعايا المخلصين لمولانا الملك المهيب چيمس ، بفضل الله،ملك بريطانيا العظمى وفرنسا وإرلندا وحامى الدين الخ . لما كنا قد قمنا بهذه الرحلة تمجيداً لله وإعلاء لشأن المسيحية وتبجيلاً لمليكنا وأمتنا ولننشىء أول مستعمرة فى الجزء الشمالى من ڤرچنيا ، فإننا بموجب هذا الميثاق نتعاقد كلنا بإخلاص أمام الله وبحضورنا جميعاً ونكوّن منا هيئة مدنية سياسية لتحسين أمورنا وصيانة حياتنا وتعزيز هذه الأغراض المذكورة . وبناء على ذلك سنسن من وقت لآخر من القوانين واللوائح العادلة ، ونقرر من النظم والوظائف ما نعتقده فى مصلحة المستعمرة وخيرها الشامل ، ونتعهد بالخضوع لها وطاعتها . وإشهاداً على ذلك قد وقعنا بأسمائنا فى رأس كود Cape Cod فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر ، وفى عهد مليكنا ومولانا چيمس ملك إنجلترا وفرنسا وإرلندا وإسكتلندا فى سنة ١٦٢٠ ميلادية. »

وقع على هذه الوثيقة واحد وأربعون رجلاً، ووافقوا على اختيار چون كارڤر John Carver ليكون أول حاكم لمستعمرتهم . ثم بدأوا فى استكشاف الأرض واختيار مكان صالح للسكنى .

ما الذى دلّ عليه هذا الميثاق الذى وقعوا عليه بأسمائهم ؟ هل دل على الاستقلال ؟ كلا، فقد ذكروا فيه أنهم رعايا مخلصون لملك إنجلترا .

هل دلّ هذا الميثاق على حقوقهم جميعا فى الحرية والمساواة والديمقراطية ؟ كلا ، إن شيئاً من ذلك لم يحدث بعد .

ولكن كلمات قيلت وكلمات سجلت . عقد الرجال اجتماعات، ولحاجة ملحة أنشأوا حكومة حيث لم تكن هنالك حكومة من قبل ، حكومة كان عليها واجب هو أن « تسن قوانين عادلة لخير الجميع » . وقد جاء يوم بعدئذ تذكر فيه الخلف هذا الاجتماع ، وذلك العهد المقطوع . كان مستطاعاً أن ينفذ ذلك الواجب . فقد استطاع أناس عاديون من حائكى الجوارب ونافشى الصوف، وآباء هادئون ذوو أسرات، أن يجتمعوا و يقرروا كيف يديرون دفة أمورهم بأنفسهم من غير حاجة إلى عهد أو أمر ملكى أو تعليمات من أية شركة . لقد كان فى استطاعتهم أن يعملوا ، وقد عملوا فعلاً . ولا تزال ذكرياتهم حية عند الناس .

كان الرجال والنساء فى پليموث أثناء ذلك — كما كانت حال المستوطنين الأول فى چيمستون—يحاربون الصعاب والمشقات ، و يكافحون البرية الموحشة . كان عناؤهم من شدة البرد بدلاً من الحر . ولكن الألم والمرض لم يختلفا عما كانا عليه فى چيمستون ؛ فقد مات نصفهم فى الشتاء الأول ودفنوا فى تراب الأرض الجديدة المصقوعة ، حيث لا يزالون هنالك فى نومهم الأبدى

ومع أن الموت قد عاجل رجالاً أشداء ونساء باسلات، إلا أن

هؤلاء قد أنقذوا حياة جميع الأطفال . وحينما جاء الربيع ، ربيع نيو إنجلند الأخضر ، سمعوا الطيور تغرد أغاريدها الجميلة .

لقد تعلم المستوطنون من الهنود كيف يزرعون الذرة وكيف يستخدمونها ، تعلموا كيف يصيدون ثعابين السمك من النهر ، تعلموا كيف يحافظون على أنفسهم فى أرض وحشية . لقد كانوا فى السنين الأولى على شفا حفرة الموت جوعاً ، بيد أنهم فى النهاية عملوا ماجاءوا من أجله ، وبعزائمهم القوية بنوا من أشجار الغابات معبداً ثابتاً ، حيث استطاعوا أن يعبدوا الله فيه كما يشاءون .

وبذلك زرعت بذور أخرى فى تربة أمريكا . ففى چيمستون حافظ القوم على الحقوق التى جاءوا بها معهم من وراء البحار ووجدوا البرية الموحشة قد صيرتهم جميعاً متساوين فأنشأوا مجلساً نيابياً . وفى پليموث أصروا وحافظوا على حقهم فى أن يعبدوا الله بطريقتهم الخاصة، ووضعوا نظاماً لحكومة ذاتية محلية . إنه لم يكن نظاماً كاملاً، ولكنه كان يختلف تمام الاختلاف عما عرفوه فى طفولتهم وشبابهم . وفى كلا البلدين كان الكل على قدم المساواة .

ومن هم بعض أولئك الرجال الأولين ؟

كان منهم چون سميث John Smith فى چيمستون . كان ذا لحية كثيفة ، محارباً ، مكتشفاً ، رساماً للخرائط ، راوياً

للأساطير ، محباً للاستطلاع ، منقباً عن الأخبار ، ذا جلد على العمل ، طروباً لكل ما هو جديد . وقد أظهر صبراً جميلاً عندما قام برسم خرائط لسواحل فرجنيا ونيو إنجلند . وكان منهم أيضاً وليم برادفرد William Bradford من پليموث ، عالماً ، عصامى التعلم ، رقيق الحواشى ، رابط الجأش ، متديناً . كان حاكماً للمستعمرة مدة ثلاثين سنة . وقد ترك وراءه مكتبة بها ٤٠٠ مجلد . وأما الآخرون فكان منهم الطيب والخبيث ، والغبى والساذج ، كما كان منهم المجرم ، بل وكان من جماعة المهاجرين قاتل واحد . أما السواد الأعظم فكان من عامة الشعب رجالاً ونساء عاديين ، قد اغتنموا الفرصة التى سنحت لهم ونجحوا فى اقتناصها . كانوا مزارعين ، وحائكى جوارب ، ومغامرين ، ونجارين ، وحراث أرض . ولم يكن بينهم غنى أو عظيم، غير أن رجلاً جاء مع الفوج الكبير التالى الذى هاجر إلى مستعمرة ماساتشوستس بَى Massachusetts Bay وكان اسمه السير ريتشرد صالتنستول Sir Richard Saltonstall. وقد جاء بعد ذلك آخرون من ذوى الألقاب والرتب الرجال والنساء . أما الأغنياء والعظماء ، والقانعون والودعاء، فقد لزموا فى الغالب بلادهم ولم يرحلوا عنها . ولقد قيل عن أولئك الذين نزحوا : إن الله قد اختار الصالحين ليعمر بهم البرية . وإذا أردنا أن نعرف شعورهم

تجاه نزوحهم فلنسمع لقول براد فرد « لا ريب فى أن الأخطار كانت عظيمة ، ولكنها لم تكن تدعو لليأس. لقد كانت الصعوبات جمة ، ولكنها لم تكن مستحيلة التذليل » . وحين امتد الاستعمار فى السهول الغربية بأمريكا قال آخر « لم يقدم الجبناء على الرحيل قط، ومات الضعفاء فى الطريق» . ويصدق هذا الوصف فى مجمله على النازحين الأولين . وكان حتماً أن يكون كذلك؛ إذ لا يعقل أن يترك الإنسان وراءه ما كان يألفه ، ويعبر البحار الصاخبة فى سفن صغيرة، دون أن يكون رابط الجأش مخاطراً جريئاً مؤمناً بالله، طموحاً فى أن يكون رجلاً حراً ، أو مدفوعاً بقوة حافزة كبيرة . إنك إن لم تتصف بشىء من تلك الصفات لا شك هالك . لقد كان بين النازحين بلا ريب خبثاء فليست هناك أمة تخلو منهم . ولكن أولئك الذين عاشوا ، وتغلبوا على الشدائد ، تعلموا كيف يقفون على أقدامهم . وهكذا كان الأمر فى البدء .

الهجـــرة العظيـــمة

ثم أخذ الناس يؤمون أمريكا كما يؤم النحل حقل البرسيم ، ولم ينقطع سيل هجرتهم منذ سنة ١٦٣٠ .

لقد كانت هجرة عظيمة متجهة نحو الغرب ، لا من الجزر البريطانية فحسب ، بل ومن جميع أرجاء أوربا . لقد جذبتهم هذه الأرض الغربية الجديدة كما يجذب المغناطيس برادة الحديد . جاءوا وحداناً وجماعات وهيئات وطوائف دينية . ومنهم من جيء بهم لمهارتهم فى فنون خاصة كالزجاجين الإيطاليين الذين جاءوا إلى جيمستون ، ومنهم من جاء وتحمل ضغط ظروف للعمل متعبة ، كما كانت الحال مع اليونانيين والمينورقيين الذين جاءوا إلى نيوسميرنا New Smyrna فى فلوريدا . لقد جاءوا من شعوب وسلالات مختلفة، فجاء الهولنديون إلى نيونِذِرْلَنْدز New Netherlands، والسويديون إلى دَلَوَير Delaware ، والفرنسيون إلى ساوث كارولِّينا South Carolina وإلى الأراضى الواسعة الجنوبية التى كانت لفرنسا تارة ولإسبانيا تارة أخرى ، ونزح الإسبانيون إلى فلوريدا ونيومكسيكو وكَليفورنيا California ، والإرلنديون والإسكتلنديون والألمان إلى پنسِلْفَينيا Pennsylvania

أما الإنجليز فنزلوا فى كل مكان .

وقد جاء كل من هؤلاء بشيء معه . فالسويديون مثلا جاءوا بفن بناء الأكواخ من خشب الأشجار، فكانوا هم أول من بناها في المستعمرات الأمريكية المختلفة . وجاء الهولنديون بأمور كثيرة منها فكرة صديق الأطفال الصالحين وهو القديس نقولا أو « سانتا كلوز » Santa Claus . وجاء الألمان بأساليبهم فى الفلاحة التى تحتاج إلى الصبر والمثابرة . وجاء الفرنسيون بالمهارة المأثورة عنهم فى زراعة الكروم .

وجاء رجال كانوا قد حاربوا من أجل ملكهم أو بلادهم، فلما انتصر خصمهم لاذوا بالفرار إلى هذه الأرض الجديدة . وجاء رجال شديدو التدين — كالمهاجرين الذين ذكروا من قبل — ليعبدوا الله على طريقتهم الخاصة دون أن يعترض عليهم أحد . وجاء قوم جياع فقراء، ولكنهم أشداء مفتولو العضلات، أرادوا أن يعلوا من شأن أنفسهم فى العالم . وجاء قوم نهازو فرص، مستعدون لأن يكونوا أجراء يعملون بأيديهم وأجسامهم عدداً من السنين، رجاء أن يحصلوا فى نهايتها على قبعة أو بدلة أو بندقية رخيصة ، أو يظفروا بفرصة لتحسين أحوالهم . وجاء متشردون ومجرمون . أجل حتى هؤلاء أيضاً جاءوا .

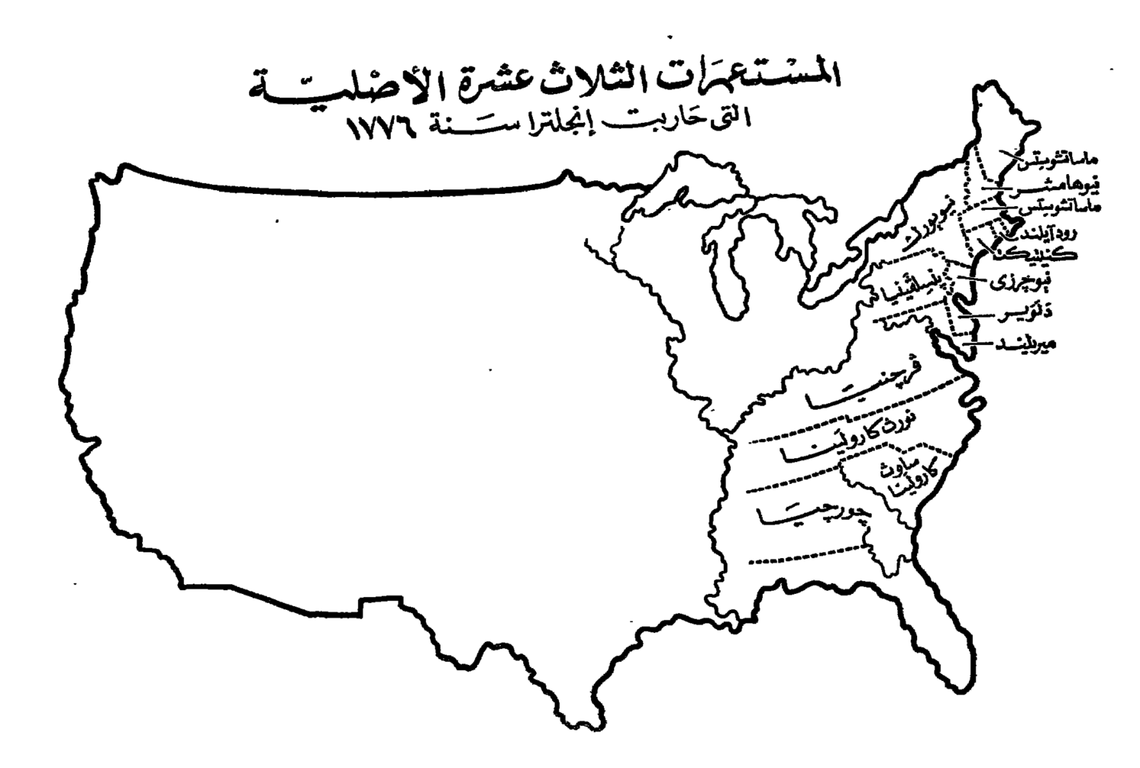
لم تصبح أمريكا حينذاك خليطاً من الأجناس كما صارت

الحال فيما بعد؛ إذ كان السواد الأعظم من سكانها لا يزال إنجليزى الأصل . على أن أسماء جديدة بدأت تظهر فيها مثل سَيكساس Seixas ودى لا نوى De La Noye ، وڤان كورْتلَنْت Van Cortlandt ، وجروجن Groghan ، ومانْسكر Mansker ، وهِرْكِمر Herkimer ، ومئات غيرها . وكلما جاءت سلالة جديدة جلبت معها صفاتها وعاداتها ولون بشرتها وطابعها الخاص . وساهم كل هذا فى الحياة الأمريكية .

ولم تأت سنة ١٧٧٦ حتى كانت فى منطقه ساحل المحيط الأطلنطى ثلاث عشرة مستعمرة تمتد حوالى ألف ميل من مَين Maine إلى چورچيا Georgia ، ثلاث عشرة مستعمرة يقطنها نحو مليونين من السكان يظلهم جميعاً العَلَم الإنجليزى ، ولو أنهم من سلالات مختلفة .

لقد انتشروا شمالاً وجنوباً كما توغلوا فى داخل البلاد على ضفاف الأنهار العظيمة ، ولكنهم لم يكونوا قد تدفقوا بعد إلى المساحات الفسيحة التى فى أواسط أمريكا ، إذ حالت دون ذلك جبال أپَلَيشن Appalachian الممتدة إلى مسافات طويلة ، وإن كان بعض ذوى الجلد من أهل المستعمرات قد عبرها فى بعض الأمكنة .

لقد كسب المستوطنون الأرض بالدماء والكد والكفاح كما



المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية
التى حاربت إنجلترا سنة ١٧٧٦

كسبوها بالحرب أو المعاهدة ، وفى أيديهم البنادق والمعاول والمحاريث ، وفى نفوسهم الأمل فى بناء حياة جديدة .

فكان لهم ثلاث عشرة مستعمرة، كل منها تختلف عن الأخرى، ولكل منها طريقتها فى الحكم ومميزاتها الخاصة . وها هى ذى المستعمرات الثلاث عشرة التى يرمز لكل واحدة منها بشريط فى العَلَم الأمريكى ذى النجوم والأشرطة ، ها هى ذى قائمة بأسماء كل منها والسنين التى بدأ المستوطنون إقامتهم بها :

Virginia	ڤرچنيا	فى سنة	١٦٠٧
New York	نيويورك	فى سنة	١٦١٤
Massachusetts	ماساتشوسيتس	فى سنة	١٦٢٠
New Hampshire	نيوهامشر	فى سنة	١٦٢٣
Maryland	ميريلند	فى سنة	١٦٣٤
Connecticut	كنيتيكت	فى سنة	١٦٣٥
Rhode Island	رود آيلند	فى سنة	١٦٣٦
Delaware	دَلوَير	فى سنة	١٦٣٨
North Carolina	نورث كارولَينا	فى سنة	١٦٥٠
New Jersey	نيوچرزى	فى سنة	١٦٦٤
South Carolina	ساوث كارولَينا	فى سنة	١٦٧٠
Pennsylvania	پنسيلڤَينيا	فى سنة	١٦٨٢

Georgia چورچيا في سنة ١٧٣٣

وقد أشرنا إلى أن ڤرچنيا وماساتشوستس أنشئتا في چيمستون و پليموث . وأما رود آيلند ، أصغر المستعمرات و إن كانت من أشدها نزوعاً إلى مبدأ الاستقلال ، فقد أنشأها روچر ولِيَمز Roger Williams في سنة ١٦٣٦ . وقد منح سكانها الحرية الدينية منــذ سنة ١٦٦٣ . وأنشأ مستعمرة پنسِلڤَنيا وليم پِنْ William Penn أحد أعضاء جمعية الأصدقاء[1] ، وهي جمعية دينية تمتاز بمحبة السلم والدعوة له . ولذا فقد استوطنها كثيرون ممن على شاكلته . وأنشأ مستعمرة چورچيا في الأصل چيمس أوجلثورپ James Oglethorpe كتجربة خيرية إنسانية لمساعدة فقراء المدينين ؛ إذ كان السجن بسبب الدَّين من المسائل الخطيرة في إنجلترا لذلك العهد . وقد أراد أوجلثورپ بعمله هذا أن يوجد مكاناً يستطيع فيه الناس أن يبدأوا حياتهم من جديد . وأنشأ الهولنديون مستعمرة نيو نِذِرْلَنْدْز ، ثم تغير اسمها إلى نيو يورك في سنة ١٦٦٤ حين أخذها الإنجليز . وأنشأ منستعمرة مَيريلند نبيل كاثوليكي يسمى اللورد بالتيمور Baltimore . ولهذا كان أول من استوطنها هم الـكاثوليك من رجال الـكنيسة وأتباعها . وها أنت

---

(١) أسست هذه الجمعية بإنجلترا سنة ١٦٢٤ . وتتطلب مبادئها من كل عضو فيها ألا يحارب ولا يؤيد الحرب .

ذا ترى كيف اختلفت نشأة هذه المستعمرات كما اختلف تاريخ إنشائها ، فلم تكن هناك صورة نموذجية معينة لها جميعها .

ولو أنك سألت أحداً من المستعمرين فى سنة ١٧٦٥ مثلاً عن جنسيته لكان جوابه « أنا رجل من ماساتشوستس أو من ڤرچنيا أو من چورچيا » . هذا كان اعتقادهم فى أنفسهم . كان عَلَمهم العَلَم الإنجليزى ، وكانوا يشربون نخب ملك الإنجليز ، رغم أنهم لم يعيشوا فى إنجلترا ، وأن أكثرهم لم يروماً شواطئها . نعم كانت كلمة « أمريكى » شائعة الاستعمال منذ زمن طويل قبل ذلك الحين، إلا أنها لم تكن تعنى ما تعنيه اليوم . فأهل المستعمرات لم يصيروا بعد أمة واحدة ، بل كان ينتمى أحدهم إلى ماساتشوستس والآخر إلى كنيتيكت وغيره إلى رود آيلند وهكذا . وكانت طريقة حياة مزارعى التبغ الأغنياء فى ڤرچنيا مغايرة لطريقة فلاحى نيو إنجلند، ولطريقة طلائع الرجال المقيمين فى أكواخهم بالبرية .

ومع ذلك فقد كان بينهم عامل مشترك، عامل يجمع بين هؤلاء الرجال على تباينهم وتلك المستعمرات على اختلافها . كان الأمر حتماً كذلك ، وإلا فما كان فى مقدورهم أبداً أن يكونوا أمة .

فماذا كان من أمرهم ؟ وماذا فعلوا فى المدة التى تزيد على مائة وستين سنة منذ إنشاء چيمستون ؟

إنهم أنشأوا بلاداً ومدناً كفلادلفيا Philadelphia و بوسطن Boston ونيو يورك ووليمز برج Williamsburg وتشارلستن Charleston . لقد دفعوا بالهنود إلى الوراء وتوغلوا فى البلاد . لقد أزالوا الغابات وحولوا أرضها تربة زراعية تحرث وتنتج الحب . لقد كان من أبنائهم تجار كيسون ، و بحارون جريئون ، وملاحون جلدون ، كما نشأ بينهم أغنياء كانوا فى دعة من العيش ورغد منه ، أغنياء تمتعوا بالحياة وظنوا بأنفسهم خيراً . وكان بينهم أيضاً أناس ملكوا مساحات عظيمة من الأرض وعاشوا فى بذخ أثرياء الريف ، فكانوا أمراء المزارع والضياع . كانت هنالك مدارس وكليات وكنائس ومبان عامة . وازدهرت تجارتهم رغم ما قيدها من لوائح . وكان بينهم نساجون ، وصباغون ، وعمال مطابع ، ومن يعملون فى صياغة الفضة ، وصناع مهرة فى فنون مختلفة ، ولو أن فلاحة الأرض وزرع التبغ وصيد السمك ظلت الحرف الرئيسية . وكانت لهم صناعات . بل لقد كان فى المستعمرات الثلاث عشرة فى سنة ١٧٧٥ أفران لصهر الحديد وسبكه زادت على ما كان منها فى إنجلترا وويلز ، ولو أن معظمها كانت صغيرة . ولو أنك ذهبت فى ذلك العهد إلى فلادلفيا أو نيو يورك أو بوسطن لوجدت فيها المسارح والجرائد وحلقات الرقص وحفلات الموسيقى والحانات وغير ذلك مما تتألف منه حياة المدن .

بيد أنه لم يكن من أجل هذا كله أن اهتم الرحالة الأوربيون بما وجدوه فى أمريكا . وكانت حياة اللهو والزهو فى هذه البلاد الأمريكية الصغيرة مثلها فى أى بلد أوربى ، سوى أنها كانت متأخرة قليلاً فى الزى والذوق ، ومتطلعة باحترام لما تفعله أوربا لتقتدى بها ؛ فتقتبس منها آداب الحديث ، وتجاريها فى وضع الأزرار الملائمة لسترة ما ، وتعزف من الألحان فى حفلة رقص ما يعزف هناك . لقد رأى الرحالون الأوربيون مدناً أجمل من مثيلاتها فى أمريكا ، وتجاراً أكثر ثراء . لقد رأوا أساليب للفلاحة أحسن مما رأوا فى بعض جهات أمريكا ، إذ كانت الأساليب الأمريكية فى ذلك الوقت غير اقتصادية ؛ فقد كانت هنالك مساحات عظيمة من الأراضى ، وكان الرجل يعد قطعة الأرض ويستغلها حتى إذا استنزف خصوبتها تركها إلى قطعة أخرى .

كلا ، إن هذه الأشياء المادية لم تكن هى التى أثارت اهتمامهم لأنها ما كانت غريبة عليهم . نعم إنهم وجدوا أرضاً فسيحة جميلة ولكنهم وجدوا قطراً تشبه مدنيته مدنية الريف ، قطراً إذا ابتعدت فيه عن المناطق المستوطنة لمدة طويلة وجدت الطبيعة لا تزال تقف فى وجه الإنسان وقفة عدو تجب مقاتلته ومعارضته ، لا ليوم أو لسنة ولكن فى كل يوم . لقد كان أعظم ما أثار اهتمامهم

هو روح الشعب وطباعه، وكيف يعيش الناس بعضهم مع بعض.

ولنسمع الآن لما قاله فى هذا الصدد هكتور سان چون دى كريفكر Hector St. John de Crèvecœur وهو فرنسى مثقف جاء إلى مستعمرة نيويورك فى سنة ١٧٥٩ ، وعاش بها عشرين سنة ، وكتب عن اختباراته فقال :

«ليس لنا أمراء نكد ونجوع ونبذل الدماء من أجلهم . فالمرء هنا حر كما يجب أن يكون . فما هو إذاً الرجل الأمريكى ، الرجل الجديد ؟ هو إما أوربى أو من سلالة أوربية . ولهذا ترى هذا الخليط العجيب من دماء شعوب مختلفة مما لا نظير له فى أية أمة أخرى . ويمكننى أن أدل على أسرة كان الجد فيها إنجليزياً وزوجته هولندية ، وتزوج ابنه من فرنسية ، وولد له أربعة أبناء تزوجوا من أربع زوجات من شعوب مختلفة . فهنا اختلط أفراد من أمم مختلفة ، وامتزجت دماؤهم ، فنشأ عنها شعب جديد سوف يحدث فى العالم تطورات عظيمة بعمله وبعمل خلفه . . . إن الأمريكى رجل جديد تحدوه مبادىء جديدة ، فلا بد أن تكون له أفكار جديدة ، وأن تكون آراؤه جديدة . »

هذه كلمات جريئة ، كلمات حماسية . ولكن ماذا كانت هذه المبادىء الجديدة ؟ وماذا كانت هذه التجربة فى الحياة البشرية ؟ إن الزوار الأوربيين قد أجمعوا على أن فى البلاد تجربة

جديرة بالمراقبة ، وإن لم يجمعوا على شيء آخر .

ففى المقام الأول قد أقرت المستعمرات — دون تصميم سابق — المبدأ القائل بأن دين الإنسان من شأنه هو . فلا يمكن أن تمنع هجرة أتباع جمعية الأصدقاء إلى أمريكا فى حين أنهم هم الذين أنشأوا مستعمرة بنسلفينيا ، ولا يمكن أن تمنع هجرة الكاثوليك وهم الذين أنشأوا مستعمرة ميريلند ، ولا يمكن أن يمنع اليهود من المجىء إلى أمريكا وهم بين الذين استوطنوا فلادلفيا ونيو بورت Newport وسواهما ، ولا يمكن أن يمنع البروتستانت وهم الذين بدأوا استيطان مستعمرات نيو إنجلند .

نعم كانت هناك قيود للكاثوليك فى بعض المستعمرات مما سبب مضايقتهم، ولكنهم لم يضطهدوا يوماً بسبب دينهم . وصحيح أن المطهرين — عند إنشاء نيو إنجلند — حاولوا أن يجعلوا لكنيستهم السلطة العليا فى البلاد وطردوا من لم يوافقهم ، ولكنهم لم يفلحوا نظراً لاتساع رقعة البلاد . نعم قد تتمكن من إبعاد رجل عن بلدتك فيصيبه بسبب ذلك عناء ومشقة ، ولكنه إذا ما سار مائة ميل أو مائتين وجد أرضاً أخرى يعيش فيها ويعبد الله كما يشاء . لقد حدث هذا فعلاً لروجر وليمز منشىء مستعمرة رود آيلند فإنه لما طرد من ماساتشوستس بسبب معتقداته أنشأ مستعمرة أخرى أتيح فيها لجميع الناس على اختلاف عقائدهم أن يعيشوا فى وئام .

ولما حصل على وثيقة رسمية تعترف بمستعمرته لم يعد فى وسع أهل ماساتشُوسِتْس أن يفعلوا شيئاً ضده . وقد حدث ما يشبه هذا لغيره أكثر من مرة . لقد كان هناك فى تلك الأراضى الرحبة متسع لجميع العقائد والأديان، ولذلك كثيراً ما نمت وازدهرت جنباً لجنب.

وفى المقام الثانى كما أن دين الإنسان كان شأنه الخاص كذلك كان نسبه وموطنه الأصلى الذى نزح منه . ولربما تغير مجرى الأمور لو كان المستوطنون جميعهم من شعب واحد ، ولكنهم لم يكونوا كذلك . لقد كانت الأرض فى حاجة شديدة للرجال ، فأتوا إليها من كل فج. وكانت حاجة منطقة الحدود شديدة أيضاً للرجال، فلم يُسأل الرجل عن ماضيه، بل سئل عن مقدرته على الإنشاء والتمهيد . فلم يرفض أحد لزرقة عينيه أو سوادهما ولا لحمرة شعره أو صفرته . لم يوصد الباب فى وجه أحد لأنه كان يهودياً من هامبورج، أو إرلندياً من كورك، أو من عمال المناجم فى ويلز ، أو إسكافياً من برستول. لقد كان فى المستعمرات مجال لكل رجل من أى شعب .

ولم يُستثن من ذلك إلا الزنوج الأرقاء، وسنتكلم عن ذلك فى حينه .

وفى المقام الثالث كان عند سكان هذه المستعمرات خبرة واسعة ومران كثير فى الحكم الذاتى . وقد كان هذا أمراً لا بد منه بسبب اتساع الأرض وترامى أطرافها وطبيعتها وعوامل أخرى .

وكما رأينـــا ، أحضر المستوطنون الأوائل إلى جيمستون وبليموث حقوقهم كإنجليز ، وهى الحقوق نفسها التى كانت لهم لو أنهم ظلوا فى إنجلترا نفسها ، وأحضروا معهم فوق ذلك خبرة ومعرفة بطريقة الحـكم فى إنجلترا . ولم تكن حكومتها مستبدة أو ملـكية مطلقة ، بل كانت حكومة من نواب ممثلين للشعب ليكونوا فى مجلس العموم، وليساعدوا على إدارة شئون الأمة . ومن هذه الفكرة الإنجليزية ، فكرة مجلس النواب ، نبتت مجالس المستعمرات الأمريكية المختلفة التى يمكن اعتبـارها من بعض الوجوه مجالس نواب محلية صغيرة . وطبيعى أنه لم تكن لها سلطة مجلس العموم الإنجليزى ، ولـكنها أتاحت لأعضائها فرصة مناقشة المسائل، وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة، وتقرير ما يجب أن يعمل وما يجب أن يهمل . ولم تكن هذه المجالس متشـابهة من حيث القوة أو الضعف ولكنها ، مع خضوع بعضها للتاج مباشرة، ظل فى وسعها أن تقاوم الحاكم الملـكى وأن تتعبه وتضايقه كثيراً إذا كانت هذه المجالس مناوئة له . وقد أدرك ذلك كثير من الحكام .

وليس هذا كل شىء ، ففى نيو إنجلند حيث كان لكل بلدة فى المستعمرات مجلسها البلدى ، كانت عادة اجتماع أهل كل بلدة متأصلة فيها . وكان يحضر هذا الاجتماع أهل البلدة لاختيـار

الموظفين المحليين وللنظر فى المسائل المحلية . وكان لجميع السكان تقريباً حق التصويت فى هذه المجالس البلدية . نضرب مثلاً لذلك ما كان يجرى فى الأيام الأولى فى ماساتشوسيتس ، فهناك رجال ليس لهم حق الاشتراك فى إدارة شئون المستعمرة الخطيرة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يملكون الحق فى انتخاب صغار الموظفين ، وفى أن يكون الواحد منهم من المحلفين ، وأن يشغل وظيفة فى الحرس الوطنى ، وأن يعرض ما شاء من الظلامات على المحكمة العامة . وقد قال المؤرخ تشارلس أندروز Charles M. Andrews فى هذا الشأن « إنه قبل أن تعلن ماساتشوسيتس فى سنة ١٦٥٢ أنها حكومة مستقلة كان لجميع رجال المستعمرة البالغين ، والذين أقسموا يمين الإخلاص ، الحق فى الاشتراك بنصيب فى إدارة شئون الحكومة المحلية أو العامة . » ولم يكن لجميع المستعمرات نظام واحد . ولكنك إذا قدرت الجيل بثلاثين سنة ، وابتدأت فى الحساب من سنة ١٦٥٢ ، وجدت أنه حين اندلعت ألسنة الثورة الأمريكية كان قد قام فى ماساتشوسيتس أربعة أجيال من الرجال الذين ساهموا بقسط ما فى إدارة شئونهم .

وثمة أيضاً مسألة الحدود وسكانها وقد بلغ عددهم مليوناً . لقد كان حكام المستعمرات والمجالس النيابية بعيدين عنهم ، وكانت حكومة إنجلترا أكثر بعداً . لقد كانوا فى صراع عنيف مع البرية ،

صراع حياة أو موت . وكان لابد لهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، إذ لم يكن لأحد غيرهم أن يقوم بالحكم . وكأن لسان حالهم يقول : إن ملك إنجلترا لا يمكنه أن يزيل لكم الغابات ويمهد لكم أرضاً ، وليس فى مقدور حاكم ڤرچنيا أن يزرع لكم الذرة ، بل عليكم أنتم أن تفعلوا ذلك بأنفسكم. وإذا جاء رجال ونساء آخرون ليقيموا فى جواركم ، وجب عليكم أن تعيشوا معهم فى وفاق وأن تتعاونوا واياهم على صيانة أنفسكم جميعاً ، كأن تقيموا حصناً من جذوع الأشجار ليحتمى بها المستوطنون المتفرقون إذا ما هاجمهم الهنود . وإذا أردتم أن يكون لكم معبد فعليكم أن تبنوه أنتم جميعاً . وإذا كان بينكم لص أو قاتل أو مزعج لأهل المستعمرة وجب عليكم جميعاً أن تحاكموه وتعاقبوه . وإذا شئتم أن تجعلوا عمدة لبلدكم المبنى من جذوع الأشجار ، أو يكون لعشيرتكم رئيس أو قائد يقودكم فى محاربة الهنود، فعليكم جميعاً أن تتعاونوا فى انتخابه كما انتخب المهاجرون الأولون حاكمهم الأول .

نعم قد يجيء يوم يكون الأمر فيه للمحاكم النظامية ورجال الإدارة النظاميين وللطريقة الحكومية النظامية . ولكن حتى فى هذه الحال سيظل لكم بعض الرأى فى إجراء الأمور ، إذ كيف يفهم الغرباء مسائلكم الخاصة . وقد جاء يوم كان فيه لسكان الحدود قولهم . من ذلك أن جماعة من الإسكتلنديين والإرلنديين الذين قد

نزلوا فى بنسلفينيا حديثاً استولوا فى سنة ١٧٣٠ على خمسة عشر ألف فدان من أراضى الحدود التى كانت من الوجهة القانونية ملكاً لأصحاب المستعمرة . وكانت حجتهم فى ذلك أنه مما ينافى القوانين الإلهية والطبيعية أن تترك هذه المساحة الكبيرة من الأرض دون استغلال ، على حين أن عدداً كبيراً من الناس كانوا فى حاجة لأن يشتغلوا فيها . ومن ذلك أيضاً ما حدث فى نورث كارولينا ، فقد كان لرجال الحدود ظلامات كثيرة ضد حكومة المستعمرة ، وثاروا عليها فى سنة ١٧٧٠ ، وخاضوا فى سنة ١٧٧١ غمار معركة حامية الوطيس ضد رجال الحرس الوطنى . وكان رجال الحدود أشداء واسعى الحيلة لا يقيمون وزناً للغنى أو الألقاب أو النسب العريق أو الشهرة ، ولكنهم كانوا يحترمون الشجاعة والجلد ، و يريدون أن يكون قولهم الفصل . وكانوا لا يتأخرون عن المناضلة من أجل حقوقهم .

هذه كانت حال المستعمرات حوالى سنة ١٧٧٠ : تجربة فى حياة البشر ، أمة لم تتكون بعد ، ثلاث عشرة دويلة مختلفة يتكلم أهلها جميعهم لغة واحدة ، ولكن قلوبهم لم تتحد بعد . كانت هناك طبقات وفوارق كما كان هناك أغنياء وفقراء . أما الأغنياء الذين مضت على ثرواتهم أجيال كثيرة فكان عددهم قليلاً ، وأما الفقراء فلم يكونوا راضين بأن يظلوا فقراء . و إذا اعتبرنا ما كان

فى أوربا وبريطانيا وقتذاك من الطبقات الاجتماعية التى كانت أقوى رسوخاً وأشد صلابة منها فى أمريكا ، كانت أمريكا مكاناً غنياً بالفرص للفرد المجدّ . وقد يكون رجل الحدود فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً إذا قورن بتاجر مدينة بوسطن ، ولكنه كان يعتقد أنه مساوٍ له فى الرجولة إن لم يزد عليه . وقد يحجم مزارع نيو إنجلند عن الكلام فى حقوق الإنسان ، ولكنه كان يعلم أن له حقوقاً كإنسان ، وكان مصمماً على الاحتفاظ بها . وربما لم يؤمن عضو مجلس النواب بفرچنيا بحق كل فرد فى التصويت ، ولكنه كان يؤمن بالحكم النيابى . وقد لا يستسيغ تاجر بوسطن كلمة «الديمقراطية» ، ولكنه كان يفهم معنى مقاومة الحكم الاستبدادى ويؤيد المقاومة . وبمجرد ما تأقلم النازح الجديد واستقرّ به المقام شعر بأنه أمريكى له الحق فى نقد ما لم يعجبه ، وأن يشق لنفسه طريقاً فى الحياة بالكيفية التى يراها . ولم ينظر إلى ماضيه فى قليل أو كثير، بل كان المهم أن يبرهن على ما فى مكنته أن يفعله . كان هذا هو الدرس الأمريكى ، وكانت هذه هى الفرصة السانحة للفرد فى أمريكا : أن ترى ماذا يحدث للإنسان بعد أن تعامله كإنسان . لقد آمن الأمريكيون بذلك وما زالوا به مؤمنين .

نعم لم يكتب الأمريكيون ذلك كله فى ورق كمجموعة من القواعد والمبادىء يجب اتباعها ، فإنهم كانوا لا يزالون يتلمسون

طريقهم مكافحين وعائشين من يوم ليوم . لقد كان أمامهم بعض الأمثلة لما يستطيع الأمريكيون أن يفعلوه وما فعلوه حقاً ، ومن الأمثلة ما فعله بنچامن فرانكلن Benjamin Franklin .

ولد فرانكلن فى بوسطن عام ١٧٠٦ وكان عاشر أبناء أبيه چوسايا فرانكلن الذى كان يحترف صناعة الشمع والصابون . كان صبياً ذكياً ، فتعلم القراءة فى سن مبكرة ، ولكنه ترك المدرسة فى العاشرة من عمره ليساعد والده فى عمله . وفى الثانية عشرة من عمره أخذ يتعلم فن الطباعة على يد شقيقه چيمس . وفى السابعة عشرة — وكان لا يزال يمارس الطباعة — انتقل إلى فلادلفيا . ولما بلغ الثالثة والعشرين صار يدير بنجاح جريدته الخاصة . ومنذ ذلك الحين لم يبق سوى أمور قليلة لم يفعلها .

وقد كتب وأصدر « تقويم ريتشرد الفقير » وهو كتاب مملوء بالأفكار والنوادر والفكاهات ، والأقوال السديدة التى لا يزال الناس يقبلون على قراءتها . واخترع القضيب المانع للصواعق ، ووضع أساس علم الكهرباء . وعلم نفسه الفرنسية والإيطالية والإسبانية واللاتينية . وطبع أول رواية تطبع بمطبعة أمريكية . وقد أنشأ أول مكتبة عامة للإعارة بالأجرة فى فلادلفيا . ونظم الفرق الأولى للبوليس والمطافىء فى المستعمرات . وكان مديراً عاماً للبريد فى أمريكا الشمالية . وكان سفيراً غير رسمى من

المستعمرات إلى بلاد الإنجليز . وأصبح قبل موته عضواً فى كل جمعية من الجمعيات العلمية بأوربا ، وسياسياً وعالمـاً وفيلسوفاً ، وأحد الذين ذاع صيتهم فى أنحاء العالم كله .

وهذا الرجل القوى العضلات ، السليم البنية ، المتواضع ، الحكيم ، كسب شهرة عالمية . وعلى الرغم من تلك الشهرة ظل يدعو نفسه « بنچامن فرانكلن — الطباع » . وقد قال عن اعتقاد صادق فى إحدى الرسائل التى كتبها أخيراً : « لعل الله يأمر بأن ينتشر بين أمم العالم لا حب الحرية فحسب ، بل معرفة تامة بحقوق الإنسان حتى يتاح للفيلسوف أن يذهب إلى أية بقعة فى العالم و يقول : هذه بلادى » .

هذا ما كان يرجوه . وهذا ما اعتقده ، وما سعى لتحقيقه . لقد كان عبقرياً ، وكل بلاد العالم تنتج عباقرة . وقد يجدر بنا أن نشير إلى أن أمريكا فى عهده ساعدت على إظهار عبقريته . لقد كان فى وسعه أن يرقى بكفايته الشخصية ومجهوده الخاص . ولم تكن به حاجة إلى الاعتماد على رعاية العظماء وفضلهم . كان أمريكياً محضاً كالنباتات الأمريكية ، وصار من أعظم رجال العالم .

ولما قارب السبعين من عمره ، وكان رجلاً ذا خبرة بالرجال و بالحياة ، نظر إلى المستقبل بحكمته و بعد نظره فرأى غيوماً تتلبد ، واعتقد أنه يجب على المستعمرات أن تتحد بطريقة ما ،

لأنها وهى متفرقة تظل ضعيفة وباتحادها تقوى .

ورغب فى أن تكون العلاقات بين المستعمرات وإنجلترا أحسن وأكثر حكمة . وبالرغم من أنه وضع الأساس لتحقيق الرغبة الأولى ، وسعى حثيثاً لتحقيق الثانية ، فإنه لم يفلح فى الوصول إلى رغبته . فلقد كان لا بد من حدوث انفجار أولاً ، وهذا الانفجار هو ما سمى بالثورة الأمريكية .

الثــورة

إذا ألقينا الآن نظرة إلى الوراء على الثورة الأمريكية ، فإنها تظهر لنا أمراً محتوماً وغير محتوم فى آن واحد .

كانت أسباب التظلم حقيقية . ومع ذلك فقد كان فى الاستطاعة إزالة هذه الأسباب بلباقة التصرف ، والصبر ، و بعد النظر . غير أنه ليس فى مكنة أحد أن يجزم الآن ما إذا كان هذا كافياً لمنع الثورة .

إن الاختلافات الحقيقية كانت متغلغلة تغلغلاً عميقاً . ففى المائة والسبعين سنة التى مضت منذ نزول المهاجرين فى چيمستون نمت المستعمرات وكبرت ، وصارت كفتيان مستعدين لأن يشقوا طريقهم فى الحياة . وقد رأى أهل هذه المستعمرات أنه إذا كان عليهم أن يظلوا شركاء فى النظام الإنجليزى وجب أن يكون لهم ما للشركاء من حقوق وتبعات .

ولكن الحكومة الإنجليزية لم تنظر إلى المستعمرات كفتيان جديرين بأن يكونوا شركاء ، بل اعتبرتها كصبيان لم يتركوا المدرسة بعد ، وليسوا أهلاً ليأخذوا نصيبهم فى الشركة . ولم يكن هذا رأى الإنجليز وحدهم بل كان الرأى السائد فى العالم وقتذاك .

وكان الاعتقاد الشائع حينئذ أن المستعمرات إنما وجدت فى الغالب لنفع الدولة الحاكمة . ولذلك يجب أن تنفذ جميع القوانين واللوائح التى تسن لتحقيق هذا الغرض .

لقد كان فى وسع البرلمان الإنجليزى أن يسن ما يشاء من القوانين لتنظيم شئون المستعمرات ، ولكن لم يكن لهذه المستعمرات ممثلون فى البرلمان الإنجليزى . وكان فى وسع البرلمان الإنجليزى أن يفرض ما شاء من الضرائب على سكان المستعمرات ، ولم يكن لهؤلاء إلا أن يدفعوها أو يثوروا .

على أنه كان من المسلم به أن للمستعمرات الحق فى أن تحكم نفسها حكماً ذاتياً إلى درجة ما . ولكن ما مدى هذا الحق ؟ لم يعرف أحد ذلك على وجه التحقيق ، فقد كان لأهل المستعمرات وجهة نظر وللحكومة الإنجليزية وجهة نظر أخرى .

هذا إلى أنه كان هناك عاملان، هما عامل الزمان وعامل المكان. فعلى أحد جانبي المحيط كان ثلاثة ملايين من الناس، فى حين أن القول الفصل والسلطة العليا فى إدارة شئونهم كانت فى يد برلمان ووزراء وملك على الجانب الآخر من المحيط . لم تكن ثمة برقيات أو رسائل تليفونية أو طائرات أو سفن بخارية تصل بين الجانبين . وقدتمر فترة — ربما تصل ستة أسابيع — على حادث وقع فى أمريكا حتى يبلغ خبره إنجلترا، وقدتمضى مدة تتراوح بين ثلاثة أشهروستة

فى مناقشة البرلمان المسألة واتخاذ قرار فيها و إبلاغه إلى أمريكا.
ولم يكن ملك إنجلترا قد زار المستعمرات قط ، كما أن عدداً قليلاً من وزرائه وأعضاء البرلمان قام بزيارتها ، أى أنهم كانوا يشرعون و يصدرون أحكاماً نهائية على بلاد ليس لهم بها علم كثير .

هذه لم تكن غلطتهم ، وكل ما فى المسألة أن الأمور سارت فى هذا الطريق . على أن هذه الحال كانت من الأسباب التى أدت إلى إعلان الاستقلال لا فى المستعمرات الأمريكية فحسب ، بل فى جمهوريات أمريكا الجنوبية أيضاً . فقد سئم سكان المستعمرات أن تدير شئونهم حكومة على الجانب الآخر من المحيط . نعم سئموا نظام الحكم الثقيل،وهم أولئك الذين لم يبقوا فى الحقيقة إنجليزاً أو إسبانيين أو برتغاليين ، بل صاروا فرچنيين أو برازيليين أو ڤنزويليين ، هذا النظام الذى تتولى إدارته حكومة بعيدة عنهم . وقد أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع فى تصريف شئونهم .

وكان مثل المستعمرات فى السنوات الأولى السابقة لإعلان استقلالها كمثل حقل يحرث ، أو بحر بدأت تثور فيه العاصفة ، أو سيدة أوشكت أن تلد ، أو صبى فى سن المراهقة .

كان هناك شىء ستتمخض عنه الأيام ، ولكن ما هو هذا الشىء ؟ كان هناك شىء يوشك أن يحدث أو ينفجر ، شىء

يوشك أن ينكسر أو يتغير ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ إن أحداً لم يعلمه حتى أحكم الحكماء . نعم كانت أفكار تغلى ، وآراء تثور وتكاد تنفجر من عقول الناس .

وكثر تفكير الفرد وتساؤله « أنا رجل . أنا أمريكى . ولكن ما معنى هذا ؟ أنا حر . أنا أعتقد نفسى حراً . ولكن ما معنى الحرية ؟ أعلم أن لى حقوقاً ، فما هى تلك الحقوق ؟ وما مداها ؟ وهل هناك طريق أخرى للحياة غير التى ألفتها ؟ أعلىّ أن أرضخ لأمور لا أحبها لا لسبب إلا لأنى نشأت فوجدتها كذلك ؟ وإذا لم يجب على ذلك فماذا ينبغى أن أفعل لتغييرها ؟ »

وكان قد بدأ غليان الأفكار هذا منذ سنة ١٧٦٣ ، حين انتهت حرب السنوات السبع . ففى تلك الحرب تغلبت إنجلترا على فرنسا فى أمريكا الشمالية ، واستولت على أراض جديدة مترامية الأطراف ، وكان عليها أن تقوم بنفقات الحرب . ولما كانت الحرب قد عادت بالنفع على المستعمرات الأمريكية ، فإن الحكومة الإنجليزية قد رأت أنه من العدل أن تساهم المستعمرات بنصيب فى النفقات .

أما سكان المستعمرات فرأوا غير ذلك . إنهم أيضاً جندوا جيوشاً ، وأنفقوا أموالاً ، واستدانوا ، على أنهم — وإن كانوا قد فعلوا ذلك طوعاً — لم يريدوا أن يدفعوا ضرائب جديدة

ليظاهروا بها نظاماً إمبراطورياً لم يكونوا فيه شركاء .

لم يكن أحد الطرفين على خطأ تام أو صواب تام ، فقد اتضح لذوى العقول الرشيدة من كلا الطرفين — بما فيهم فرانكلن — أنه من الواجب وضع مشروع جديد لتنظيم العلاقات بين الدولة الحاكمة والمستعمرات إذا أريد لهذا النظام البقاء . وقد وضع فعلاً هذا المشروع — ولكن بعد انقضاء وقت طويل — لتحديد العلاقات بين « مجموعة الأمم البريطانية » British Common-wealth of Nations ، على أن ذلك كان وقتئذ لا يزال فى ثنايا المستقبل البعيد . ولكن الأمر ازداد تعقداً فى سنة ١٧٦٣ بسبب الملك جورج الثالث ، الملك العنيد ، الذى اختار مستشاريه من غير الأذكياء وغير المحنكين .

وقد جاء مع « قانون الدمغة » The Stamp Act أول إنذار بالثورة . فقد حدث أن الحكومة الإنجليزية — رغبة منها فى الحصول على مال من المستعمرات — أصدرت قانوناً يوجب وضع ورقة دمغة من فئات تتراوح بين نصف بنس وثمانين شلناً على الجرائد ، والنشرات ، والرخص ، والفواتير التجارية ، وعقود الإيجار ، والسندات القضائية وغيرها فى المستعمرات . وأنت إذا لم تشتر طوابع وتلصقها على تلك الأوراق صرت خارقاً للقانون .

وقد اعتبر البرلمان ووزراء الملك هذا النظام عادلاً ، لا سيما وقد

أوجب قانون الدمغة نفسه إنفاق المال المجموع من الطوابع فى « الدفاع عن المستعمرات وحمايتها والمحافظة على سلامتها ».غير أن هذا القانون كان أشبه بثقاب من نار وقع فى برميل من بارود .

لم يعتبر الأمريكيون قانون الدمغة هذا قانوناً ضرورياً أو إجراءً عادلاً من الحكومة . وعدّوه أمراً فرضته عليهم فرضاً حكومة خارجية بدون موافقتهم ، فكان بدءاً غير طبيعى ونذيراً لعهد من الطغيان .

حرقوا الطوابع وأجبروا القائمين على بيعها أن يتنحوا عن وظائفهم . عقدوا الاجتماعات وضجوا وهاجوا وصاحوا غاضبين . أرسلوا ظلاماتهم والتماساتهم إلى الملك قائلين « إننا ندين لكم بالولاء ولكن لنا من الحقوق ما للإنجليز . ومن حق الإنجليز ألا تفرض عليهم ضرائب إلا بموافقتهم، سواء أوافقوا بأنفسهم أم بواسطة نوابهم الممثلين . ونحن لم نوافق على ضريبة الدمغة . »

ألغى قانون الدمغة، وفرح أهل المستعمرات. ولكن هذا الإلغاء لم ينته بالأمور إلى الاستقرار . ذلك لأن القوم أخذوا يتحدثون عن الحرية بنهج جديد . فمن أقوالهم ما قاله كرستوفر جادزدن Christopher Gadsden من ساوث كارولينا :

« ينبغى أن نكون جميعاً على قدم المساواة فى الحقوق الطبيعية، ويجب ألا ينسب أحد فى قارتنا إلى نيو إنجلند أو نيو يورك ،

بل يجب أن نكون جميعاً أمريكيين . »

وما قاله چون دِكِنْسُن John Dickinson من پنسِلڤينيا :
«لنعتبر أنفسنا جميعاً رجالاً أحراراً، مرتبطين جميعاً بروابط مشتركة من الحقوق والمصالح والأخطار . فما عسى أن تطلبه إذاً هذه المستعمرات ما دامت حرة . »

وما قاله پاتريك هِنْرى Patrick Henry من ڤرچنيا : «هل الحياة ثمينة والسلم حلو لدرجة أن نشتريهما بتكبيلنا بالسلاسل وبالعبودية ؟ اللهم لا تُرِد هذا أيها الإله القدير . إننى لا أدرى أى طريق قد سلكه غيرى ، أما عن نفسى فهب لى الحرية أو الموت . »

الحرية ! يا لها من كلمة . إنها تمتزج بدماء الناس . إنها تبدأ كنسمة فى الهواء ، ثم لا تلبث حتى تصبح عاصفة هوجاء . لقد هبت هذه العاصفة فى شوارع بوسطن المتعرجة ، وفى حقول پنسلڤينيا ، وعلى تلال ڤرچنيا المترامية . فكان صداها هذه العبارات «الحرية ! إننا سندافع عن الحرية » . لقد أخذت هذه الكلمة تسرى إلى الأكواخ على الحدود ، وكان حاملو البنادق يهزون رؤوسهم قائلين « ليس عليك أن تحدثنا عن الحرية ، فهى عندنا ونحن مصممون على الاحتفاظ بها» . وقد أخذت نفثات الحرية تنبعث من ضربات الطبول، حيث كان أهل المستعمرات يتدربون خفية

على أساليب القتال ، وكأنها تنادى : «هلموا جميعاً يا أبناء الحرية واتحدوا ، فقد خلقتم أحراراً » . هكذا كانت الحرية صوتاً يعلو ، وريحاً تعصف ، وطبلاً يقرع ، فيوقظ ذكريات السنين ، السنين الخالية ، ويستحضر صور السنين التالية .

أما هنالك بإنجلترا — على مسافة ثلاثة آلاف ميل — فإن الملك العنيد ، ووزراءه المتغيرين، لم يسمعوا قرع الطبول ولا هبوب العاصفة . لقد تولتهم الحيرة ، وانتابهم القلق ، وتملكهم شيء من الغضب . وكأن لسان حالهم يقول: إن سكان المستعمرات هؤلاء ليسوا إلا أطفالاً ؛ فيجب ألا يترك لهم الحبل على الغارب ، ويجب أن تظل السلطة مسموعة الكلمة ، ويجب أن يعاملوا بحزم . فإذا ظهرت قلاقل فى بوسطن أرسلنا لها جنوداً . لنرجع إلى قانون قديم كان فى عهد هنرى الثامن ، ولنحضر المشاغبين إلى إنجلترا لمحاكمتهم. ينبغى أن نكون حازمين وأن لا نعير اهتماماً للاحتجاجات الشديدة التى يعلنها بعض عظماء الإنجليز أمثال بُرك Burke وبِت Pitt . وكما قال اللورد نورث North رئيس وزراء إنجلترا فى ذلك العهد « يجب أن تخافكم أمريكا أولاً حتى تحبكم » . أما عن الضرائب فسنعاملكم بسخاء ؛ سنلغى الضرائب الأخرى ونفرض ضريبة على الشاى لتكون ضريبة رمزية فقط . إن الأمريكيين سيشترون الشاى بثمن أقل من ذى قبل ، ولكن

سيدفعون عليه ضريبة؛ وبهذا يفهمون أن فى مقدرتنا أن نفرض عليهم ضرائب .

لقد حسبوا أنهم يعاملون أطفالاً ، على حين كان الأمريكيون رجالاً . وهكذا أخطأوا فى فهم الخلق الأمريكى كما أخطأ سواهم من الحكومات الأجنبية مرات كثيرة،واعتقدوا أنه لا هم للأمريكيين غير المال .

فرضت الضريبة وشحن الشاى إلى أمريكا ، ولكن حينما وصل إلى بوسطن أخذه رجال المدينة وألقوا به فى مياه المرفأ .

هذه كانت « حفلة شاى بوسطن » فى اليوم السادس عشر من ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، وكما ضاع الشاى فى البحر ضاعت فرصة الوصول إلى حل سلمى .

شعرت الحكومة الإنجليزية أنها لا تستطيع أن تتراجع فى خطتها ، ورأى أهل المستعمرات أنهم سوف لا يتراجعون .

أقفلت الحكومة الإنجليزية ميناء بوسطن، وألغت العهد الملكى المتضمن إنشاء مستعمرة ماساتشوسِتْس ، وأصدرت قوانين أخرى قاهرة . فأجابت المستعمرات على ذلك بأن دعت السكان إلى عقد مجلس يمثلها The Continental Congress فاجتمع فى فلادلفيا فى سبتمبر سنة ١٧٧٤ وحضره خمسة وأربعون رجلاً رزيناً يمثلون المستعمرات جميعاً ، ماعدا نورث كارولينا وچورچيا .

هكذا اجتمعوا كما اجتمع قبل ذلك بمائة وخمس وخمسين سنة مجلس النواب فى چيمستون،وكما اجتمع فى سنة ١٦٢٠ موقعو «اتفاق مَيفلَور» على ظهر السفينة التى تحمل هذا الاسم . لقد كان الاجتماع هذه المرة من أجل أمة ، ولكن نفس الحافز القوى ظهر هنا للعيان . اجتمعوا وكأن لسان حالهم يقول : اتحدوا فى الأزمات. اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر . فقرروا حقوقكم وأعلنوها ودافعوا عنها دفاع الرجال . لقد ارتفع منذ أمد بعيد هذا الصوت، صوت الحقوق والحرية — ارتفع منذ توقيع معاهدة مجنا كارتا Magna Carta فى مستنقع رُنيميد Runnymede ، ارتفع وكان لا بد أن يبقى ويستمر .

وقد حدث فى صباح منتشر الضباب فى اليوم التاسع عشر من إبريل سنة ١٧٧٥ أن وصل إلى قرية زراعية صغيرة تدعى لِكسِنْجتن Lexington بماساتشُوسِتْس رجال الجيش البريطانى، وكانوا قد أُرسلوا من بوسطن لمصادرة ذخائر أهل المستعمرة . فرأوا فى ميدان القرية الخضراء صفاً من المزارعين المسلحين الذين أطلق عليهم اسم « رجال اللحظة » Minute Men يعترض الطريق . فأمر القائد البريطانى الأمريكيين أن يتفرقوا صائحاً : «تفرقوا أيها المتمردون . . . لم لا تتفرقون ؟ »

فخاطب الضابط الأمريكى رجاله بقوله : « اثبتوا فى أماكنكم

أيها الرجال . ولا تطلقوا النار إلا إذا بدأوا بإطلاقها عليكم . فإن أرادوا حرباً فلتبدأ الحرب هنا . » ثم كان إطلاق النار ، وكان بدء الثورة .

بهذا وقعت الحكومة البريطانية فى غلطة أخرى؛ فقد اعتقدت أن الأمريكيين لن يحاربوا . وقد اعتقدت نفس الاعتقاد حكومات أخرى بعد ذلك ، وكان اعتقادها أيضاً خاطئاً .

عادت الحملة البريطانية إلى قاعدتها فى بوسطن بعد أن فقدت من رجالها ٢٧٣ بين قتيل وجريح . وكان أهل المستعمرة قد اندفعوا من بيوتهم ثائرين كالنحل إذا غضب ، وأخذوا يطلقون النيران على البريطانيين ذوى الأردية الحمراء من وراء جدران مبنية بالأحجار . وفى السابع عشر من شهر يونيو سنة ١٧٧٥، وبعد مضى شهرين على هذا الحادث،حاول ثلاثة آلاف من الجنود المحنكين أن يحتلوا مركزاً للأمريكيين على تل بُنكر Bunker Hill فى خارج بوسطن . لقد تمكنوا من الاستيلاء على التل بعد هجوم مباشر ثلاث مرات ، ولكنهم خسروا ما يزيد على ألف رجل بين قتيل وجريح . وقد صمد — تحت إمرة قواد مدنيين — أولئك الأمريكيون غير المدربين ، من المزارعين والميكانيكيين، أمام أحسن المشاة تدريباً فى عهدهم .

وما كانوا ليبلوا هذا البلاء فى كل موقعة ، فقد كان مقدراً

لهم أن يذوقوا مرارة الهزيمة والكوارث والخذلان ، وأن يجوعوا ويختبئوا . ولكنهم مع ذلك كوّنوا لأنفسهم أساليب خاصة فى القتال . وكان مصيرهم أن قادهم چورچ واشنطن ذلك الرجل الذى لم يعرف معنى الاستسلام .

وبعد عام من هذا الحادث، وفى اليوم السابع من يونيو سنة ١٧٧٦ وقف ريتشرد هنرى لى Richard Henry Lee فى مجلس المستعمرات يقترح « أن تكون هذه المستعمرات المتحدة ذات حق فى أن تصير ولايات حرة مستقلة » . وبعد مناقشات حوالى شهر وافق أعضاء المجلس على هذا الاقتراح . وفى اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٧٧٦ كان إعلان الاستقلال، وبذلك خلقت أمة جديدة .

وإعلان الاستقلال هذا هو أحد الأركان الثلاثة العظيمة التى تقوم عليها العقيدة الأمريكية وطريقة الحياة الأمريكية . وإن كل طفل أمريكى ليدرس كلماته فى المدرسة ، ويسمعها تقرأ فى الأعياد القومية ، حتى رسخت فى ذهنه . وإننا لنتخذ كلمات إعلان الاستقلال قاعدة نريد أن نعيش وفقها ، وهدفاً نرمى إليه فى جهودنا القومية .

فما الذى يقوله هذا الإعلان عن الناس ، وعن الحكومات ، وعن الطريقة التى يجب أن يعيش الناس بها معاً إذا استطاعوا ؟

إنه يعطى أسباباً شتى معينة لما حدا بالمستعمرات إلى الانفصال عن إنجلترا . ولكن خلاصة ما فيه من المبادىء تنحصر فى الفقرة الثانية التى تقول :

« إننا نعد الحقائق الآتية من البديهيات : خلق الناس جميعاً متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقاً خاصة لا تنتزع ، منها الحياة ، والحرية ، والسعى لنيل السعادة . ولتأمين هذه الحقوق تكوّنت من الناس حكومات تستمد سلطانها العادل من رضى الشعب المحكوم . فإذا قامت أية حكومة لتقضى على هذه الغايات أصبح من حق الشعب أن يستبدلها أو يلغيها وأن يقيم مكانها حكومة جديدة تعتمد على أسس من المبادىء والأنظمة التى يراها أجدى وأصلح فى صون سلامته وسعادته . وإن الحكمة لتقضى حقاً ألا يستند الناس على أسباب واهية وعرضية ليغيروا حكومات طال استقرارها . وكذلك أثبتت الخبرة أن بنى الإنسان يفضلون أن يتحملوا ما يمكن تحمله من الثورة ، على إصلاح أمورهم بإلغاء ما تعودوه من النظم . ولكن إذا ما تعدد سوء استعمال السلطة واغتصابها، وتبين أن الغرض الذى ترمى إليه الحكومة من ذلك هو وضع الشعب تحت نير الاستبداد ، فمن حق الشعب ، بل من واجبه ، أن يسقط مثل هذه الحكومة وأن يستعيض عنها بطرق جديدة لتأمين مستقبله . »

كانت هذه دعوة موجهة لكافة البشر ، لا للملايين الثلاثة أهل المستعمرات فحسب . اقرأها مرة أخرى ، إنها لا تزال دعوة موجهة إلى جميع الذين ينشدون الحرية .

إن أهمية إعلان الاستقلال هى فى هذه الدعوة وليست فى اجتماع أهل المستعمرات وقولهم : « إننا نريد أن نكون مستقلين » . ولكنهم بقولهم هذا قد وضعوا بعض المبادىء والعقائد ، منها أن الناس جميعاً خلقوا سواسية ، وأن لهم جميعاً حقوقاً معينة ، وأن الحكومات إنما تنصب للمحافظة على هذه الحقوق وأنها تستمد سلطتها من إرادة الشعب المحكوم ، لا من إرادة ملك أو دكتاتور ، ولا من طبقة مخصوصة ذات مصالح مخصوصة ، وأن من حق الشعب أن يسقط الطغاة والمستبدين وأن ينشد خير الوسائل ويتخذها لحكم نفسه .

لم تكن هذه الآراء جديدة ، فقد كانت مختمرة منذ عهد بعيد فى عقول المفكرين أمثال هارنجتن Harrington ولوك Locke وسِدْنى Sidney من الإنجليز كما وعتها عقول جيل جديد فى فرنسا . ولكنها أعلنت فى أمريكا لأول مرة بكلمات وجيزة بسيطة باعتبارها العقيدة التى يحارب من أجلها ثلاثة ملايين من الناس . ولم تعلن هذه الآراء على أنها أحلام جميلة يرجى أن يحققها المستقبل ، ولكن على أنها حقائق بديهية . نعم عبّر عنها وسجلها

رجل عظيم مفكر هو توماس چفرسن Thomas Jefferson من ڤرچنيا ، ولكنها كانت فى الواقع قد دُقّت وطُرقت على سنديان الحرية والحكم الذاتى اللذين مارسهما أغلب الأمريكيين مدة مائة وسبعين سنة . لقد كان چفرسن عضواً فى مجلس النواب بڤرچنيا، وقد رأى بعينى رأسه كيف يحكم الناس أنفسهم . فلم تكن كلماته جوفاء ، بل كانت عقيدة راسخة صادرة عن خبرة . ولهذا بقيت كلماته حية . أجل، قد أهملنا هذه الكلمات كثيراً كما هى عادة البشر ، ولكننا ما زلنا نعتقد اليوم،كما اعتقدنا فى سنة ١٧٧٦، بأنها الكلمات الحق لقوم أحرار ، وإننا لمصمّمون على الاحتفاظ بها مهما كلفنا ذلك من ثمن غال .

كان إعلان الاستقلال جريئاً حقاً . كان نفيراً ودوياً للحرية . ولكنه لم يضع حداً للثورة ، فقد كانت حرب الاستقلال طويلة قاسية مريرة ، وقد استمرت بعد موقعة لِكْسِنْجتن سبع سنين .

كانت حرباً أهلية كما كانت حرباً قومية ؛ فقد انحاز كثير من الأمريكيين إلى جانب الإنجليز عن اعتقاد عميق . وقد قاسوا وتحملوا فى سبيل مبدئهم آلاماً لا تقلّ عما قاساه وتحمله غيرهم فى أى عصر من العصور . وحينما وضعت الحرب أوزارها ، أو قبل ذلك ، بارح كثير منهم المستعمرات أو طُردوا منها ليبدأوا حياة جديدة فى كندا أو إنجلترا أو فى الممتلكات البريطانية الأخرى .

وهناك نشأ نسلهم ونموا فى الحياة الجديدة ، وأصبحوا دعائم قوية فى مجموعة الأمم البريطانية .

وكانت حرباً إنجليزية كما كانت أمريكية . فقد قام كثير من خيار الإنجليز وأكثرهم حكمة — مثل پت Pitt وتشارلس چيمس فوكس Charles James Fox — يدافعون عن القضية الأمريكية لا ضعفاً منهم فى حبهم لإنجلترا ولكن حباً منهم فى الحرية .

وكانت الحرب حرب الحرية وأحرار التفكير ؛ فقد جاء من فرنسا لافاييت Lafayette وروشامبو Rochambeau وكثيرون غيرهما ليساعدوا الأمريكيين . وجاء من الولايات الألمانية فون شتويبن Von Steuben ودى كلب De Kalb ومن بولنديا جاء كوشوشكو Kosciusko وپولاسكى Pulaski .

وكانت حرب عقائد ؛ فقد اعتنق مبدأ القومية الأمريكية الجديدة وأيده بعض الأسرات المثرية الشهيرة كأسرة جَى Jay ولِڤِنْجستن Livingston ولى Lee فى حين أن بعضها الآخر أعلن الولاء لإنجلترا .

وعندما اندلعت ألسنة الثورة كان چورچ واشنطن مزارعاً ناجحاً ، وكان همه الأول أن يحسن مزارعه وينميها . وكان قبل ذلك جندياً ومساحاً على الحدود ، ولكنه كان محباً للسلم ، يميل

إلى المحافظة . وكان رجلاً نبيل الخلق ، شريفاً ، مستقيماً ، يلبس الملابس الأنيقة و يتمتع بعشرة الأصحاب الظرفاء و بلعب الورق مع الأصدقاء وبالصيد فى الغابات والحقول . وكان يميل إلى الدقة فى تدوين مذكراته عن الحاصلات التى يزرعها ، والكلاب التى يربيها، وما يرد إليه من أثمان حاصلاته الزراعية وما لا يرد . وكان قائد الجيش الأمريكى مدة سبع سنوات بدون أجر . وكان الركن القوى الذى اعتمد عليه الشعب المجاهد . وحلت به الكوارث وأحاط به أعداء حاسدون . ولقد تعرض للسب والإهانة والسخرية ، وكان يتعقبه أعداؤه كما يُتعقب الثعلب فى الصيد . وشارك جنوده مهلهلى الثياب فيما عانوه من البرد والجوع ، ولكنه لم يستسلم . لقد كان معرضاً لأن يفقد كل شيء فى سبيل وطنيته ، ولكنه لم يستسلم . لم يكن ليقبل الرشوة أو ليخضعه الخوف ، أو ليقعده التعب . كلا لم يكن ليتحول أو ينثنى عن مبدأ الحرية .

وكذلك كان شأن بول رِفير Paul Revere صائغ الفضة ، بائع المطبوعات ، وحفّار النحاس الذى احترف كثيراً من المهن والذى جاء والده أپولوس رڤوار Apollos Revoire من جزيرة جرنزى . كذلك كان الشأن مع ألكسندر هاملتن Alexander Hamilton ذلك الشاب المتوقد الذكاء ، المولود فى جزائر الهند

الغربية . وشبيه بمن ذكرنا چون آدمز John Adams المحامى البوسطنى ، وصمويل آدمز Samuel Adams البوسطنى والخطيب الشعبى ، هؤلاء جميعاً آمنوا بحق الناس فى أن يكونوا أحراراً ، ووقفوا كل ما ملكوا فى سبيل هذا الاعتقاد .

كانت الحرب حرباً غريبة ؛ فقد كان بعض القواد الإنجليز قساة القلوب ، ولكن القيادة البريطانية العليا فى أمريكا لم تحاول أن تسحق الشعب الأمريكى أو تستأصل شأفته بالرغم من رغبتها فى النصر . وصحائف أعمال جَيج Gage وهاو Howe وأخيه ، وبْرجوين Burgoyne وكورنْوالس Cornwallis غير سوداء ، فقد حاربوا كجنود شرفاء ، ولم يحاولوا الوصول إلى النصر بما يلقى الهلع فى قلوب الأهلين . ولم يحدث إعدام جماعات من أى الطرفين المتحاربين .

لقد كانت حرباً غريبة حقاً ؛ فإنها لم ترق فى عين الجمهور الإنجليزى ، بل إن كثيراً من الضباط الممتازين — كاللورد جفرى أمرست Jeffrey Amherst رفض أن يحارب ضد المستعمرات فتراخى التجنيد . ولذلك لجأت الوزارة الإنجليزية إلى إرسال أفواج من الهسّيين Hessians وهم فلاحون سذج باعهم أمير إمارة هسّه Hesse فى ألمانيا نظير ثمن معين لكل فرد، لكى يحاربوا فى أمريكا ويموتوا فى سبيل قضية لم يعرفوا عنها قليلاً أو

كثيراً. ولما كانوا أجانب ، كرههم الأمريكيون . على أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها بقى منهم فى أمريكا نحو عشرة آلاف تزوجوا ، واستوطنوا ، وامتلكوا أراضى لأنفسهم . لقد صاروا أحراراً فى أمريكا ، ولو أنهم عادوا إلى هسّه لما صاروا كذلك . لقد آوتهم أمريكا وأصبحوا مواطنين صالحين .

لقد كانت حرباً لمبدأ . وقد نفخ فيها من روحه توم پَين Tom Paine الذى كان خياطاً ، ثم أصبح كاتب نشرات ، والذى كتب يقول « قد يخبو لهيب الحرية أحياناً ، ولكن جمرها لن ينطفىء » . وقد خاض غمار هذه الحرب كثيرون لم يعرفوا كل نواحيها ومراميها ، كما هى الحال فى كل الحروب .

كان يقاتل فى الجانب الأمريكى من هذه الحرب مزارعون وميكانيكيون وتجار وصيادو سمك وحلاقون وصيادون وحدادون. وكان من بين القواد جرِين Greene وأصله حداد ، ومورْجن Morgan وأصله صياد ، وواشنطن وأصله مزارع .

كانت حرباً تحمّل الشعب آلامها بصبر ؛ كانوا يرون بيوتهم تحترق ومحاصيلهم تتلف ، فلعنوا الحارقين والمتلفين ، ولكنهم ظلوا مصمّمين على البقاء فى أرضهم . كانت حرباً كان فى أوربا من هلّل لها ومن ندّد بها ، حرباً كان يراقبها الأوربيون ، فكانت تؤثر فى عقول من يقرأون الصحف ومن يصغون لآخرين يتحدثون

عنها و يذكرون اسم واشنطن وأمريكا وعبارة « خلق الناس جميعاً أحراراً » .

وأخيراً بلغت الحرب نهايتها بمعاونة فرنسا والأسطول الفرنسى، فسلم كورنوالس فى يوركتون بولاية فرچنيا فى اليوم التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٧٨١ ، وأمضيت معاهدة السلم التمهيدية فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٢ ، والمعاهدة النهائية فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ .

وهكذا هبّ قوم عاديون من الرجال والنساء ، فقراء وأغنياء، سكان الحدود وتجار ومزارعون ، و بعد نضال دام سبع سنين خلقوا أمة .

الدستور

أخذت أعين أوربا تنظر إلى هذه الأمة الوليدة وتتساءل : ما نوع هذه الأمة ؟ كانت أمة ضعيفة ، حديثة التكوين . لقد كانت تجربة ، أو أمراً غريباً ، أو أملاً ، أو أمنية ، أو فكرة ، ولكنها لم تكن بعد أمة بحق .

كانت الحرب قد اجتاحت جزءاً من أخصب حقولها وأفسدته، وكثير من خيرة أبنائها رحلوا عنها أو طردوا منها .

حينما بدأت حياتها كأمة كانت مثقلة بالديون ، وتدهورت عملتها حتى أصبحت لا تساوى شيئاً . وأصاب الكساد تجارتها فى الصميم . وأما صناعتها التى أضعفتها الحرب فقد كادت حركتها تشل شللاً تاماً ، وساءت مكانتها المالية فى أسواق العالم .

ومما زاد الطين بلة أنها لم تكن ولاية واحدة بل ثلاث عشرة ولاية حاربت جنباً إلى جنب ، ولكنها لم تكن على وفاق تام . كانت حكومتها — أى مجلس المستعمرات — أشبه بجمعية المناظرات المرتبكة ، ولم تدفع دائماً أجور جيشها حتى فى أيام النصر .

وكان المعتقد أنها ستنهار بعد سنين معدودة ، تنهار وتتفكك إلى ثلاث عشرة دويلة متخاصمة ، أو أنها ستقع فريسة لدولة

أجنبية أقوى منها ، أو تنشب فيها ثورة أهلية دموية وتسودها الفوضى .

فإن لم يحدث شيء من هذا ، فلا بد لها من ملك أو دكتاتور أو إمبراطور أو رجل يحكمها بيد من حديد . وربما أمكن استمالة أحد أعضاء الأسر الملكية الصغرى فى أوربا فيتحمل هذا العبء الثقيل ، أو قد يتشبه الأمريكيون بالأوربيين وينصبون عليهم طاغية منهم .

وعلى كل حال فقد كانت أملاً أو أمنية أو حلماً أو أمراً آخر من أجله حارب ومات رجال جاءوا من شعوب مختلفة . فهل حاربوا وماتوا سدى ؟

وتملك العجب والتساؤل أولئك الذين رأوها أو سمعوا عنها أمثال لافاييت وفوكس وبرْجوين وملك بروسيا وملك فرنسا وملك إنجلترا .

وبينما هم فى تعجّبهم وتساؤلهم مستغرقون تكوّنت الأمة .

دعائم البيت

يجىء بعد كل ثورة وقت لا بد يغتنمه الناس لمراجعة موقفهم وما أنتجوه ، وليقرروا نوع الحكومة التى يريدون إقامتها عليهم . وقد جاء هذا الوقت فى أمريكا حينما اجتمع مندوبو المؤتمر الدستورى فى فلادلفيا فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٧٨٧ .

كان عدد المندوبين خمسة وخمسين رجلاً من بينهم تسعة ولدوا فى بلاد أجنبية . وليس هذا بالعدد الكبير لتقرير مصير أمة ، ولكن كان بينهم واشنطن ، وفرانكلن ، وماديسن Madison وهاملتن ، وراندلف Randolph ، وميسن Mason ، ودكنسن ، تلك العقول المفكرة فى الولايات المتحدة . ولم يتخلف إلا چفرسن الذى كان وقتذاك بفرنسا فى مهمة سياسية .

وكان متوسط أعمار المندوبين نحو اثنتين وأربعين سنة ، فلم يكونوا مسنين ولا أحداثاً ، بل كانوا رجالاً صقلتهم الحرب والثورة ، رجالاً ذوى خبرة عملية ، وقد أرادوا أن يقيموا نظاماً حكومياً عملياً يعيش أولادهم فى ظله أحراراً .

وقد تجادلوا وتناقشوا فى أمور كثيرة . كانت الولايات الصغيرة

تشعر بغيرة من أخواتها الكبيرة . وكان أصحاب الأملاك يطلبون المحافظة على أملاكهم، والمدينون يرغبون فى كثرة المال ليسهل عليهم دفع ديونهم . وكان بينهم من يفضلون أن تمنح كل ولاية حقوقاً تكاد تكون كاملة ، وتتحالف مع الولايات الأخرى ، لا أن تتحد معها اتحاداً سياسياً . ولكنهم توصلوا فى النهاية إلى وضع الدستور.

وقد نص الدستور على أن الغاية الأولى منه هى « إقامة اتحاد أقوى وأمتن » . فما الذى فعلوه فى سبيل هذه الغاية ؟

إنهم وضعوا نظاماً حكومياً قوامه : الكونجرس ويتكوّن من مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، والرئيس ، ومحكمة عليا .

فأما الكونجرس فوظيفته أن يسن القوانين التى تعود على الشعب بالخير العميم . وأما الرئيس فوظيفته أن يقوم بتنفيذ هذه القوانين وتطبيقها . وأما المحكمة العليا فوظيفتها أن تصدر حكمها فى القوانين التى لا يتفق عليها .

وكان على الكونجرس أن يجتمع مرة فى كل سنة للبحث فى شئون البلاد ولسن القوانين . ولم يكن من حق الرئيس أن يدعوه للانعقاد — اللهمّ إلا فى الأحوال الاستثنائية — أو أن يؤجله أو أن يحله ، فكان للكونجرس وحده أن ينعقد ، أراد الرئيس أو لم يرد .

والسلطة جميعها مستمدة من الشعب . وقد أعطى الكونجرس

سلطات واسعة . وقد نص الدستور على هذه السلطات التى منها إعلان الحرب ، وتعبئة الجيوش وتموينها ، وفرض الضرائب ، وتنظيم التجارة ، والاستدانة وغير ذلك .

نعم إن السلطة جميعها مستمدة من الشعب ، ولكن الشعب حينذاك كان يسكن فى ثلاث عشرة ولاية مختلفة الحجم . لذلك كان لا بد من تأليف مجلسى الكونجرس — الشيوخ والنواب — بطريقتين مختلفتين .

كانت مدة العضوية فى مجلس النواب سنتين ، وكان انتخاب أعضائه على أساس عدد السكان ؛ بمعنى أن نواب الولايات كثيرة السكان يكونون أكثر من الولايات قليلتهم ؛ وكان لمجلس النواب هذا حق التقدم بمشروعات القوانين المالية .

ولكى تصان حقوق الولايات الصغيرة أعطى لكل ولاية مهما كان حجمها مقعدان فى مجلس الشيوخ . ومدة العضوية فى هذا المجلس ست سنين . وكان لا بد أن يمر كل مشروع قانون بالمجلسين قبل أن يعرض على الرئيس .

وينتخب الرئيس لمدة أربع سنوات . وله هو أيضاً سلطات واسعة ؛ فهو القائد الأعلى للجيش والبحرية ، وهو الذى يطبق القوانين وينفذها ، وله أن يرفض ما لا يروقه من مشروعات القوانين التى أجازها الكونجرس . على أنه إذا وافق المجلسان

على مشروع القانون المرفوض بأغلبية ثلثى الأعضاء فإنه يصبح قانوناً بالرغم من رفض الرئيس .

وللرئيس سلطة عقد المعاهدات بشرط أن يوافق عليها ثلثا مجلس الشيوخ ، وله أن يعين السفراء وقضاة المحكمة العليا وبعض الموظفين الإداريين ، ولا يتم ذلك إلا بعد استشارة مجلس الشيوخ وموافقته .

وقد أعطيت السلطة القضائية فى الولايات المتحدة للمحكمة العليا . و يبقى قضاة المحكمة العليا فى وظائفهم « ماداموا حسنى السلوك » فليست لهم مدة محددة . وليس هناك رأى جازم فيما إذا كان مؤسسو الجمهورية قصدوا أم لم يقصدوا أن تكون للمحكمة العليا سلطة الحكم النهائى على دستورية القوانين التى يسنها الكونجرس . على أن هذه السلطة قد آلت فعلاً إلى المحكمة العليا ، وأصبح معترفاً لها بها . فإذا قررت المحكمة العليا « عدم دستورية » قانون أصدره المجلس، بطل هذا القانون . وقد يحدث بعد ذلك فى عهد تال — بل لقد حدث فعلاً — أن محكمة عليا أخرى تقرر دستورية قانون مماثل للمرفوض ، ولها كامل الحرية فى أن تفعل ذلك . وفى الواقع تقوم المحكمة العليا وصية على القوانين وحائلاً دون التسرع فى التشريع . فلم يعرف فى تاريخ الولايات المتحدة محكمة عليا كانت توافق مثلاً على دستورية

قانون يقضى باضطهاد اليهود لأنهم يهود ، فإن مثل هذا القانون على فرض صدوره من الكونجرس ، وموافقة الرئيس عليه ، يناقض كل المناقضة التعديل الأول للدستور[1] .

وقد يبدو هذا النظام معقداً ، ولكنه فى الواقع مرن وعملى معاً . وقد وصف بحق بأنه « نظام كبح وتوازن » إذ ليس بين الهيئات الدستورية التى تتألف منها الحكومة — التشريعيه والتنفيذية والقضائية — هيئة لها سلطة استبدادية تامة ، فالهيئات الثلاث تشترك فى تصريف شئون الأمة .

أدرك مؤسسو الجمهورية أن السلطة جميعها مستمدة من الشعب ، ولذلك أنشأوا الكونجرس مكوّناً من نواب وشيوخ يمثلون الشعب كما هى الحال فى المجلسين الآن . ولكيلا تستبد الولايات الكبيرة كثيرة السكان بالولايات الصغيرة جعلوا لكل ولاية مقعدين فى مجلس الشيوخ ، وجعلوا مدة العضوية لهذا المجلس ثلاثة أمثالها لمجلس النواب . ولما كان الشيوخ عادة أكبر سناً من النواب ومدة عضويتهم أطول ، فإنهم بذلك يكونون بمثابة « كبح وتوازن » لسلطة الرئيس ومجلس النواب .

وقد أرادوا أن يكون لمنصب الرئيس سلطة واسعة لأن أغلبهم كانت لهم خبرة سابقة ببلاد سيطر على إدارتها مجلس[2] ، فكانوا

---

(١) انظر صفحة ٧٦ . (٢) مجلس المستعمرات فى أيام الثورة

يعلمون أن المجالس وحدها لا تستطيع إدارة الأمة . ولذلك أعطوا للرئيس سلطات كبيرة لدرجة تجعله من أقوى الحكام فى العالم ، ولا سيما وقت الحرب . ولكن خشية أن يصبح حاكماً مستبداً اشترطوا أن يجرى انتخاب الرئيس مرة كل أربع سنوات ، كما أعطوا الكونجرس الحق فى إصدار القوانين بالرغم من رفض الرئيس لها . وكذلك وضعوا شروطاً أخرى تحد من سلطانه .

وقد جعلوا المحكمة العليا أكبر سلطة قضائية .

ومما له أهمية عظيمة أنهم أباحوا تعديل الدستور إذ لم يعتبروه وثيقة جامدة لا تتغير . وبذلك أصبح ممكناً عمل تغييرات فيه على توالى الأيام . وهذا ما حدث فعلاً ؛ فقد أدخل عليه تعديل إحدى وعشرين مرة حتى الآن ، على ما فى عملية التعديل من صعوبة وما تتطلبه من وقت غير قصير .

على أن هناك أموراً لم يتعرضوا لها فلم ينصوا على شىء يتصل بتكوين مجلس وزراء ، ولا بوزير الخارجية ولا بوزير الحربية ولا بغيرهما ، ولو أنهم سلموا بأنه سوف يكون هناك مصالح إدارية ومديرون لهذه المصالح،ولم يذكروا شيئاً عن الأحزاب السياسية أو النظام الحزبى . نعم قرروا أن يقوم بانتخاب الرئيس هيئة انتخابية ، ولكن أظهرت التجارب أن هذه الطريقة غير عملية . نعم من الوجهة الرسمية لا زالت الهيئة الانتخابية تقوم بانتخاب

الرئيس ، ولكن أعضاءها ينتمون فى الواقع لأحزاب سياسية مختلفة ، وكل منهم يعطى صوته لمن يرشحه حزبه . على أن الأيام قد أثبتت صلاحية معظم الأمور التى نصوا عليها فى الدستور . نعم إن فى هذا النظام بعض الخلل ولكنه نظام يؤدى وظيفته .

وكان لا بد بعد ذلك من أن تقرّ الدستور وتوافق عليه تسع ولا يات على الأقل من الولايات الثلاث عشرة ، و بعد مناقشات طو يلة صودق عليه وأقر .

ومع ذلك لم يكن الشعب قانعاً .

أجل إن حكومة قد أنشئت ، ولكن ماذا كانت حقوق المواطن العادى فى ظل هذه الحكومة ؟

اجتمع كونجرس الولايات المتحدة للمرة الأولى بنيو يورك فى خر يف سنة ١٧٨٩،وفى تلك الجلسة أقر عشرة تعـديلات فى الدستور الأصلى . وقد صيغت هذه التعديلات فيما يعرف باسم « وثيقـة حقوق الشعب » Bill of Rights وها هى ذى التعديلات العشرة :

التعديل الأول

لا يجوز للكونجرس أن يسن قانوناً لإنشاء أية ديانة ، أو لتحريم إقامة شعائرها بحرية تامة ، أو قانوناً يحد من حرية الكلام أو

الصحافة ، أو يمنع الشعب من حقه فى إقامة اجتماعات سلمية ، أو أن يطلب من الحكومة رفع ما وقع عليه من غبن .

التعديل الثانى

لما كان من الضرورى لتأمين سلامة أمة حرة أن يكون لها حرس وطنى منظم ، فلا يجوز أن يحرم الشعب من حقه فى اقتناء الأسلحة وحملها .

التعديل الثالث

لا يجوز أن يُنْزَل أىُّ جندى فى وقت السلم فى بيت ما ، بدون موافقة صاحب البيت ، ولا فى وقت الحرب إلا بالكيفية التى ينص عليها القانون .

التعديل الرابع

لا يجوز أن يعتدى على حق الشعب فى أن يكونوا آمنين على أنفسهم ، و بيوتهم ، وأوراقهم ، ومقتنياتهم ، ضد التفتيش والمصادرة بغير سبب مشروع . ولا يجوز أن تصدر أوامر بذلك إلا لأسباب وجيهة مدعمة باليمين أو الإثبات ، و يجب أن ينص الأمر على وصف المكان الذى يطلب تفتيشه والشخص أو الأشياء التى يراد القبض عليها .

التعديل الخامس

لا يجوز أن يقدم للمحاكمة أحد بتهمة فى جناية كبرى[1] أو جريمة شائنة إلا بطلب أو اتهام من هيئة اتهامية من المحلفين[2] اللهم إلا القضايا التى تنشأ فى الجيوش البرية والبحرية والحرس الوطنى حينما تكون فى الخدمة العاملة أثناء الحرب أو عند وقوع خطر قومى : ولا تجوز محاكمة أحد مرتين على الجريمة نفسها بتعريض حياته أو جسده للضرر ، ولا يجوز أن يكره على الشهادة ضد نفسه فى دعوى جنائية ، ولا أن يحرم من حياته وحريته وأملاكه إلا بمقتضى القانون ، ولا يجوز أن تؤخذ أملاك خاصة للمنافع العامة بدون دفع تعويض عادل .

---

(١) هى الجناية التى يستحق مرتكبها الإعدام .

(٢) يشتمل نظام القضاء فى الولايات المتحدة على هيئات من المحلفين وهى باعتبار وظيفتها على نوعين ، نوع يسمى Grand Jury ونوع ثان يسمى Petit Jury

أما النوع الأول فوظيفته أن يقرر ما إذا كان الفرد يستحق أن يقدم للقضاء فى تهمة أو لا يستحق ، ولذلك نسمى هذا النوع باللغة العربية «هيئة المحلفين الاتهامية» . وأما النوع الثانى فيكون فى المحكمة أثناء سير القضية تحت إشراف القاضى ، ووظيفته أن يقضى ما إذا كان المتهم مديناً أو غير مدين ، ولذلك نسمى هذا النوع « هيئة المحلفين القاضية »

التعديل السادس

يجب فى جميع الدعاوى الجنائية أن يتمتع المتهم بحق المحاكمة السريعة وعلى رؤوس الأشهاد أمام هيئة قاضية من محلفين محايدين من الولاية أو الجهة التى وقعت فيها الجناية على أن تتحقق السلطة القانونية من الجهة ، ويجب أن يعرف المتهم نوع التهمة المنسوبة إليه وأسبابها ، كما يجب أن يواجه بشهود الإثبات وأن يجبر شهود النفى على الحضور أمام المحكمة لأداء الشهادة وأن يكون له محام يساعده فى الدفاع عن نفسه .

التعديل السابع

إذا زادت القيمة المدعى بها فى القضايا التى تستدعى القانون العرفى common law على عشرين دولاراً وجب أن تنظر القضية أمام هيئة قاضية من المحلفين . ولا يجوز لأية محكمة أخرى من محاكم الولايات المتحدة إعادة النظر فيما أصدره المحلفون من حكم إلا وفقاً للقواعد المنصوص عليها فى القانون العرفى .

التعديل الثامن

لا يجوز طلب كفالة باهظة ، ولا الحكم بغرامة باهظة ، ولا إيقاع عقاب وحشى غير مألوف .

التعديل التاسع

إن النص على بعض الحقوق فى متن الدستور يجب ألا يفسر بأنه ينكر أو يحتقر الحقوق الأخرى التى يحتفظ بها الشعب .

التعديل العاشر

كل سلطة لم يمنحها الدستور لحكومة الولايات المتحدة المركزية أو لم يحرم الولايات منها تظل محفوظة لكل ولاية أو للشعب .

* * *

وهكذا سار الناس للأمام قدماً . ومن هذا نرى أن الدستور ووثيقة حقوق الشعب هما الركنان الثانى والثالث من الأركان التى يقوم عليها الإيمان الأمريكى . فحرية الكلام ، وحرية العبادة ، والتحرر من الاضطهاد ، وحق المحاكمة أمام المحلفين ، هذه كلها قد ضمنت للأمريكيين . وهكذا صار الناس الذين خلقوا متساوين ولهم حقوق ثابتة أحراراً فى تقرير مصيرهم .

الجمهورية الناشئة

بتنصيب چورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة فى حفلة ساد فيها السلام انتهت الثورة الأمريكية .

لقد كانت ثورة حقيقية وسلسلة طويلة من المشاق ، ثورة مليئة بالصعوبات والنضال والمرارة ، وانقلاب فى العادات والتقاليد القديمة ، ولكنها لم تأكل بنيها ، ولم تترك فى النفوس رغبة فى الانتقام ؛ فالهسّيون الذين أقاموا فى البلاد لم يضطهدوا ولم يقطع دابرهم . نعم إن بعض الذين والوا الإنجليز عوملوا معاملة قاسية عند رجوعهم ، ولكن غيرهم عادوا وعاشوا فى سلام كمواطنين فى الأمة الحديثة . ولم تحدث فى البلاد مذابح أو تستأصل شأفة المناوئين السياسيين . لقد كان هناك جدال سياسى عنيف ، ولكن لم تتآمر جماعة من الناس سراً لقلب الحكومة بقوة السلاح . حقيقة نشبت فى البلاد ثورتان صغيرتان محليتان ، وهما ثورة شَيز Shays Rebellion فى سنة ١٧٨٦ وثورة الوسكى Whisky Rebellion فى سنة ١٧٩٤ ، ولكن قضى على الثورتين عندما أظهرت الحكومة أنها قادمة على إخماد الثورة ، ولم يحكم على أحد من الثوار بالإعدام . وقد صدر عفو عام عن شَيز ومن اشتركوا

معه من الثوار . أما زعماء ثورة الوسكى فقد ثبتت عليهم تهمة الخيانة ، ولكن الرئيس عفا عنهم بعد ذلك .

فما سبب ذلك ؟ لم يكن هذا لأن الأمريكيين يتخلقون بالفضائل أكثر من غيرهم . إنهم لم يكونوا يوماً ما كذلك ، وكل ما فى الأمر أن حظهم كان سعيداً لأنهم وضعوا نظاماً للحكم يسمح بالتعبير عن وجهات النظر المختلفة . وكان حظهم سعيداً بتوفيقهم للرجال الذين قادوا دفة الجمهورية الناشئة فى عهدها الأول .

إنهم كانوا بشراً ، وكانت فيهم نقائص ، وارتكبوا أخطاء ، ولكن أحداً منهم لم يرد أو يدبر خطة ليصبح بها حاكماً مستبداً . ولم ير واحد منهم أن الوسيلة الوحيدة للحكم تنحصر فى قتل الذين يخالفونه أو حبسهم .

كان أمامهم حلم يسعون لتحقيقه ، حلم بجمهورية حرة . وقد جعلوا نصب أعينهم جاهدين تحقيق هذا الحلم . وكان أن قادهم هذا الحلم أحياناً إلى الإتيان بالمضحكات ، ذلك لأنهم كانوا يتصورون أنفسهم كأهل الجمهورية الرومانية الذين قرأوا عنهم فى كتابات بلوتارك ؛ فمن أمثلة ذلك أن محامياً فى قرية صغيرة كان حين يكتب رسالة إلى جريدة يؤثر أن يكون توقيعه سنسناتس Cincinnatus أو بروتس الصغير Brutus Jr، وأقاموا تمثالاً غير مناسب لچورچ واشنطن إذ ظهر فيه مرتدياً رداء رومانياً . وكل

هذه الأمور مدعاة للضحك ، وكثيراً ما ضحك الزائرون الغرباء منها . على أن أولئك الرجال الأمريكيين كانوا عند ما يتحدثون عن فضيلة الجمهورية أو بساطة الجمهورية كانوا يعنون بذلك شيئاً ذا أهمية . لقد حاولوا أن يعيشوا عيشة تتفق ومدلول هذه الكلمات ، عيشة تتفق مع حلمهم بجمهورية حرة ، جمهورية تفضل الجمهورية الرومانية القديمة .

فلنعرض بعض الرجال لنرى ماذا فعلوا وماذا كان تفكيرهم .

ولنبدأ بجورج واشنطن الذى كانت أخلاقه سبباً إلى حد كبير لا فى نجاح الثورة فحسب ، بل فى تأسيس الجمهورية أيضاً .

فإذا ما نظرنا إلى هذا الرجل من ناحية من نواحيه وجدنا رجلاً شديد التدقيق فى الأمور، مهيباً، وقوراً، يصعب التقرب إليه، رجلاً لا يحب الاختلاط بالجماهير ، ولا يسهل عليه مخالطة من هم دونه فى المستوى الاجتماعى . نعم كان رجلاً قوياً ، قوياً فى بنيته ، قوياً فى عقله ، ولو أن عقله لم يكن يمتاز بقوة خاصة على الابتكار أو يميل إلى الأمور الفلسفيه . وكان حاد الطبع — وإن كان يستطيع أن يضبط نفسه عادة — لدرجة قد تصل أحياناً إلى ثورة الغضب . ولم يكن رجلاً ذا أسلوب خطابى يجتذب الجماهير .

ومع هذا فقد كان من ناحية أخرى لا يتوانى قط فى قبول

وتحمل الأعباء التي توضع على عاتقه . وقد كان في وسعه أن ينال من الأمة التي أنشأها ما يشاء من مكافآت ، ولكنه عند ما كتب إليه رئيس إحدى الجمعيات السخيفة مقترحاً عليه أن يتوج ملكاً على الأمة الجديدة ، لم يكتف بأن رفض الاقتراح ، بل قال له بأوضح العبارات « إذا كان يهمك أمر نفسك وذريتك من بعدك ، وكنت تحمل لي أي احترام ، فانزع هذه الأفكار من رأسك ، وإياك أن تكتب إليّ في هذا الأمر لا بالأصالة عن نفسك ولا بالنيابة عن غيرك . »

لقد كان يحب بيته ،ولكنه لم يره ولو مرة واحدة مدة ست سنوات في أثناء الثورة . كان رجلاً ثرياً وإدارياً حذراً ، ومع ذلك غامر بنفسه وماله في سبيل الحرية ، ورأى ثروته تتضاءل دون أن ينبس ببنت شفة . كانت كل مطامحه محصورة فيما يعود بالخير على بلاده وبني وطنه . لقد كان بشراً له ضعف البشر ، وكثيراً ما تولاه اليأس من عقلية أبناء بلاده ووطنيتهم ، بل ومن كل شيء يتصل بهم ، ولكنه لم يتوان لحظة عن العمل من أجلهم إلى يوم مماته . لذلك كانوا يثقون به حتى عند ما كانوا يسيئون إليه . لقد كان عظيماً في خلقه الراسخ . وما كان يعمل إلا ما يراه حقاً مهما كلفه ذلك من ثمن . ولم يجد الناس من الأسماء المصغرة ما يطلقونه عليه تحبباً ، لأن صفاته العظيمة جعلته فوق ذلك .

ولذلك حين أطلقوا عليه لقب « أبو الأمريكيين » لم يكن هذا اللقب مزخرفاً بل كان الحقيقة المجردة .

كان واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة ، وخلفه چون آدمز John Adams الذى كان ابن مزارع وحفيد نجار خالى العمل هاجر من إنجلترا فى سنة ١٦٣٦ . وكان محامياً قصير القامة ، قوى الثقة بنفسه ، نقادة ، لاذعاً فى عبارته ، مستقلاً فى رأيه ، لا يهاب التصريح به أينما كان . كان قديراً يمازج قدرته شيء من الحدة والخشونة . ولكنه كان عظيم الإخلاص لبلاده من غير ما أثرة . ومع أنه كان من نيو إنجلند فإنه سعى جاهداً فى سبيل تعيين واشنطن الفرچنى قائداً أعلى للجيش الأمريكى لأنه كان يعتقد أن واشنطن أصلح رجل لهذا المنصب . كان ثورياً ولكنه لا يؤمن بسفك الدماء . وكان يرى أن حفلة شاى بوسطن « أعظم وأهم الحوادث جميعها » . وقد كان رجلاً ذا مبادىء صارمة لدرجة جعلته يخاصم توماس چفرسن فى سبيل المبدأ . فكتب عنه فى يومياته عبارات مريرة سامة . ولكنه حين تقدمت به السن اصطلح مع خصمه فى نبل وعذوبة وإنك لتجد آخر المراسلات التى جرت بينهما تنم عن سعة عظيمة فى التفكير وإحاطة بشتى الأمور . وآدمز هو الذى أنشأ البحرية الأمريكية ، مع أنه كان محامياً ، ولم يحترف الملاحة فى حياته . كان

رئيساً غير محبوب من الجمهور ولكنه قام بواجبه كرئيس بإخلاص عظيم . ولم تعوزه إلا تلك المواهب التى تجعل الناس يحبونه بدلاً من أن يحترموه احتراماً مزيجاً بتململ . على أنه كان من أوائل الفلاسفة السياسيين الأمريكيين . ولا زالت روحه اللاذعة العنيدة كثيرة التساؤل، باقية الأثر إلى اليوم فى عقلية أهالى نيو إنجلند .

وكان الرئيس الثالث توماس چفرسن Thomas Jefferson من أهالى ڤرچنيا ، وهو أحد رجال العالم الذين يصعب وصفهم بكلمات قليلة . كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، ذا عينين رماديتين وشعر أشقر . وكان مخترعاً ومفكراً وكاتباً وفيلسوفاً وسياسياً عملياً . وكان ذا اعتقاد دائم فى قيمة الشعب وفضائله . وقد وضع تصميماً لمحراث جديد جيد . وهو الذى صاغ وثيقة إعلان الاستقلال . وكان مهندساً معمارياً يشار إليه بالبنان ، وهو الذى وضع التصميم لبناء بيته المسمى « مونتيسيلو » Monticello الذى يعد من أجمل بيوت العالم . وكان دائم الاهتمام بكل ما هو جديد، وبما قد يحدث فى المستقبل ، وبما يمكن أن يبلغه الناس إذا هم أحسنوا الاختيار ، وبما يمكن أن يصير إليه الناس إذا عزموا . كان يحب الفنون ويعزف على الكمان ، ذا ذوق فنى فى الأشكال والرسوم . وكان أحياناً قاسياً وغير منصف فى حكمه الشخصى والوقتى

على معاصريه كما كان يفعل آدمز، و يلف و يدور فى سياسته ، و يبعد عن الصراحة فى بعض أعماله . ولكنه كان مع ذلك أول رجل ديمقراطى عظيم فى أمريكا ، ولم تتزعزع قط ثقته بالشعب مدة حياته الطويلة . ومما كتبه فى سنة ١٨١٦ ، بعد خبرة واسعة بالرجال والحكم: «ضع مبادىء صادقة ، وتمسك بها بقوة وعزم . ولا يدخلن الخوف فى قلبك و يحملنك على التخلى عنها ذعر الهيابين أو تذمر الأغنياء من تقدم الشعب . إن الأساس الحقيقى للحكم الجمهورى هو أن تتساوى حقوق الناس جميعاً فى شئونهم الشخصية وفى أملاكهم وفى جميع تصرفاتهم . وأنا أعلم أن القوانين والنظم يجب أن تتمشى مع ارتقاء العقل البشرى ، فكلما ازداد هذا ارتقاء وتنوراً ، وكلما ظهرت اكتشافات جديدة و انحسر اللثام عن حقائق مستترة ، وجب أن تخطو النظم أيضاً إلى الأمام لتساير الأيام . »
وكان يرقب المستقبل دائماً و يؤمن بالمساواة والعدل الكامل بين الناس جميعاً . ومما قاله عن نفسه « إننى أدير دفة سفينتى ناظراً إلى ما أمامى من الرجاء وتاركاً ما ورائى من الخوف . » و إن قبره فى فرچنيا لقبر رجل كان يؤمن بالإنسان ، قبر رجل عرف الحلو والمر من بنى الإنسان ، ولكنه لم يغير قط اعتقاده فيما تستطيع عامة الشعب أن تفعله وأن تبلغه .

ومن مؤسسى الجمهورية أيضاً ألكسندر هاملتن Alexander

Hamilton . كان ذكياً ، طلق اللسان ، جميل المنظر ، وجندياً شجاعاً ، وكاتباً قديراً ، ومالياً بارعاً . كان أحب ياور إلى واشنطن كما كان أول وزير للمالية فى الولايات المتحدة.فبينما كان جفرسن يبنى رجاءه على مستقبل لأمريكا يتألف فيه أغلب سكانها من فلاحين مستقلين قادرين ينتجون ما يحتاجون ، كان هاملتن يفكر فى الصناعة ورأس المال . ولم يكن ذا إيمان قوى بمقدرة الشعب ، بل كان يرى أنه ينبغى أن يقوم بأعباء الحكم ويتولى قيادة الشعب رجال أكثر منه ذكاء . وقد أعرب عن حبه « للأغنياء ولأبناء الأسر العريقة وللمهذبين » ولم يؤمن بالمساواة بين أفراد الشعب إلا إذا تساوَوا فى الذكاء . لذلك لم ير قيمة لأصوات التذمر من الجمهور . وقد يكون من الخطأ الفاحش أن نحسبه جامداً محافظاً . لا ، لقد كان ثورياً ويريد أن تكون فى أمريكا دولة ذات حكومة قوية مركزية يدير شئونها أحسن الناس وأقدرهم . ولا بأس عنده أن تكون الحكومة ملكية ، وإنما يجب أن تكون الدولة حرة مستقلة ، ونموذجاً يحتذى فى العالم . ومع أنه كان يحب الأبهة والفخامة فإنه كان قليل الاكتراث بالمال ، ولم يدخر منه شيئاً .

إنه خلق هو وجفرسن ليكونا خصمين سياسيين ، فقد كان لكل منهما رأى فى طبيعة الإنسان يختلف عن رأى الآخر

ولا يقل فضل هاملتن عن فضل أى شخص آخر فى تثبيت الدستور الذى كوّن الولايات المتحدة ، و يكاد يكون الفضل فى إصلاح حال الأمة المالية من صنع يده وحده . وكانت وفاته فى مبارزة غير ضرورية فى سبيل الشرف، مبارزة كان من الممكن أن يتفاداها رجل أقل منه شجاعة . مات فى السابعة والأربعين من عمره بعد أن خلف فى الأمة طابعه الشخصى القوى . هكذا كان أربعة من الرجال الذين أسسوا الجمهورية الناشئة . على أنه مع تباينهم هذا التباين العظيم كانت تؤلف بينهم رغبة واحدة ، هى أن ينشئوا أمة حرة . وكان غير هؤلاء الأربعة كثيرون أمثال جالَتين السويسرى Gallatin و إخوة من أسرة لى Lee الڤرجنية ورُتْلِج Rutledge من ساوث كاروليَنا ، وأمثال مادِيسن Madison ومنرو Monroe اللذين صار كل منهما فيما بعد رئيساً للبلاد ، واللذين نشأ كل منهما وقد أشربت فى قلبه مبادىء هؤلاء الرجال الحكماء . هذا إلى رجال آخرين كانوا على الحدود ؛ فإن الصيادين والمستوطنين الأولين أخذوا أثناء الثورة يتدفقون من معابر جبال أليجِيَنى Allegheny إلى ما وراءها من البلاد ، تلك البلاد التى لم يكن بها قوانين يخضعون لها . غير أن أول شىء عملوه أن عقدوا اجتماعات وصنعوا لأنفسهم قوانين. وفى كِنْطكى وتِنِيسِى أنشأ المستوطنون الأول نظمهم الحكومية وسجلوها كتابة . فقد ألقى السلاحَ، لفترة

قصيرة ، رجالُ التخوم الأشداء ، قدماء المحاربين ضد الهنود ، واجتمعوا دون أن يعلموا كل العلم السلطان الذى يريدون أن يحكمهم ، ولكنهم كانوا مصرّين على أن يعيشوا أحراراً . نعم ربما بدت لهم الثورة أمراً بعيداً عنهم، ولكنهم كانوا قد اشتروا أراضيهم بإراقة الدماء ، فكانوا مصمّمين على أن يحتفظوا بها فى ظلال الحرية . كان كل شىء على الحدود يقدّر بحسب قيمته العملية . أما الحرية فقد كانت قيمتها لهم فوق ذلك ؛ إنها كانت ضرورية لا غنى عنها .

وهكذا بعد أن تم انتخاب خمسة من الرؤساء فى سلام نشبت حرب ثانية بين الولايات المتحدة و إنجلترا فى سنة ١٨١٢، ولكن لم تكن لها نتيجة حاسمة .

أخذ الثقات من المراقبين الذين كانوا يلاحظون ما يجرى فى أمريكا حينذاك يعترفون بأنه ما زال لهذا الأمل الجديد ، أو هذه التجربة الجديدة ، أو هذه الجمهورية الوليدة فى العالم الجديد بعض الفرص للتغلب على الآلام التى صحبت ولادتها . هذا ما كان من أمر شئونها الداخلية، فماذا كان مركزها فى ميدان الشئون العالمية؟

إنها كانت لا تزال ملجأً للمهاجرين، ورمز الأمل لكل نازح من بريطانيا أو أوربا يريد أن يحاول البحث عن حظه فيها. وقد جاء بعضهم فعلاً وصدمتهم خيبة الأمل ، إذ لم يجدوا جنة عدن

التى كانوا ينتظرونها . وجاء غيرهم ووقعوا فى أيدى الغشاشين والمحتالين فقالوا إن المبادئ الأمريكية ليست إلا خدعة . وجاء آخرون فنجحوا ووُفقوا .

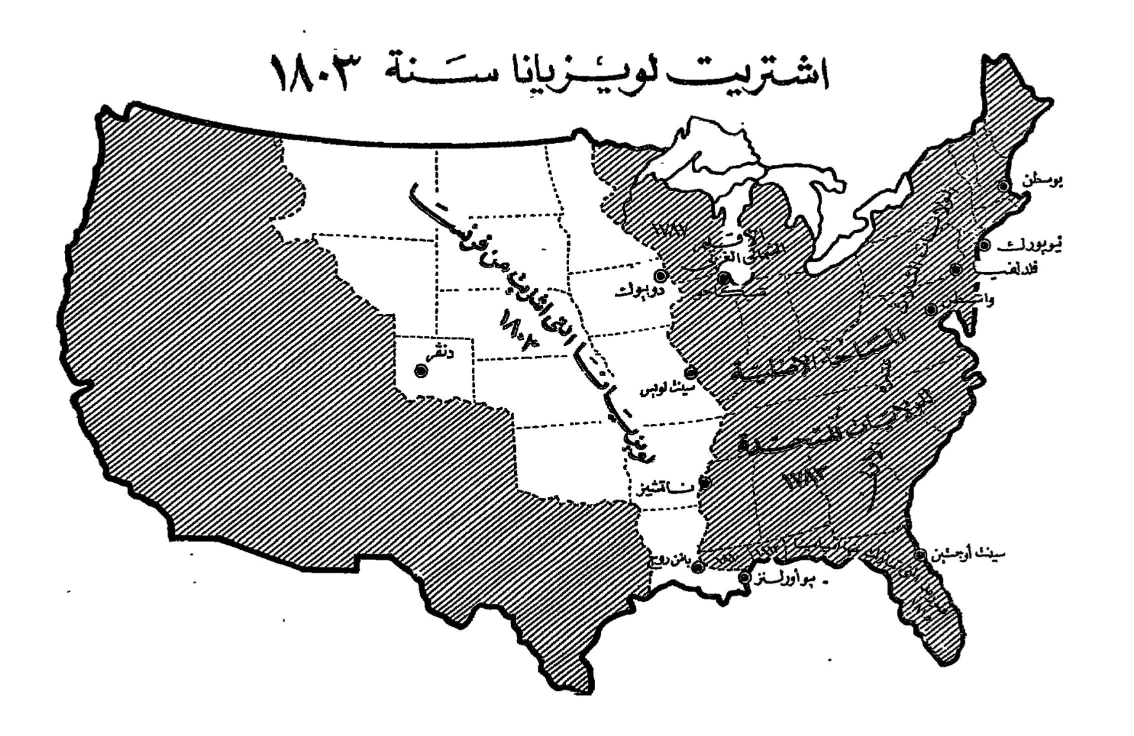
على أنها كقطر أو أمة لم تكن عظيمة أو ذات شأن ، ولكن بالرغم من هذا صدر منها بعض الحوادث الغريبة التى تلفت الأنظار . ففى أيام الرئيس چفرسن مثلاً رفضت حكومة الولايات المتحدة أن تدفع جزية لقرصان شمال إفريقيا ، وبالرغم من أن الأسطول الأمريكى كان بعيداً عن قواعده بأربعة آلاف ميل فقد تمكن من إرغام مراكب القرصنة القوية الجريئة على أن تحترم علم النجوم والأشرطة . وفى عهد الرئيس چفرسن أيضاً اشترت الولايات المتحدة من فرنسا أراضى لويزيانا Louisiana المترامية الأطراف . وفى حرب سنة ١٨١٢ استولى الإنجليز على مدينة واشنطن ، وأحرقوا البيت الأبيض ، ولكن انتصر القائد الأمريكى أندرو چاكسن Andrew Jackson انتصاراً عظيماً على الجيش البريطانى النظامى فى نيو أورلينز ، وقد برهنت السفن الأمريكية — بالرغم من تفوق الأسطول البريطانى عليها فى العدد — على أنها تعادل فى قدرتها ومهارتها الحربية أحسن السفن فى العالم .

وقد ظهرت هذه الحوادث بحق فى عين أوربا صغيرة

وليست على كثير من الأهمية ، ذلك أنه لم يكن للولايات المتحدة جيش مدرب منظم ولا أسطول عظيم ، فبقيت مجهولة الحقيقة ولم تزد على أنها بقعة من الأرض واقعة فى جانب من خريطة العالم . نعم كانت هناك ، ولكنها لعبت دوراً صغيراً فى شئون العالم .

أما الأمريكيون فكانوا ينظرون إلى الحالة نظرة تختلف عن نظرة أوربا ؛ كانوا قانعين ببقاء الأمور كما هى عليه . فلم يريدوا جيشاً عظيماً ولا أسطولاً عظيماً ، ولم يريدوا أن يتدخلوا فى مشاكل أوربا ومشاحناتها ، ولكنهم أرادوا أن يتفرغوا لعمران بلادهم . ولم يهمهم فى صلاتهم مع شعوب العالم الأخرى أكثر من أن يتاجروا معها ، و يتبادلوا البضائع والأفكار ، وأن يستبقوا معها علاقات سلمية .

ولم تكن هذه الأمور مجرد رغبات ، بل كانت ممكنة التحقيق ذلك لأنه كان يحمى ساحلى أمريكا الشمالية الغربى والشرقى محيطان عظيمان ، ولم تكن الأمم المجاورة للولايات المتحدة من الشمال والجنوب أمماً حربية قوية ، فكان فى استطاعة الولايات المتحدة إذاً أن تسير فى الخطة التى اختطتها لنفسها دون أن تكون مهددة باعتداء دولة أجنبية البتة ، وقد تم لها ذلك مدة سنوات طويلة .



اشتريت لويزيانا سنة ١٨٠٣

لم يكن هناك سوى خطر واحد جائز الوقوع ، وهو أن تأتى دولة أجنبية قوية وتستعمر جزءاً من أمريكا الشمالية أو الجنوبية ، وتنشىء دولة مرتبطة بأوربا ارتباطاً وثيقاً تضمر العداء للولايات المتحدة. فلما هبّت المستعمرات الإسبانية فى العالم الجديد وتحررت من نير الحكم الإسبانى ، وأنشأت جمهورياتها الخاصة بها ، قام جيمس مُنْرو James Monroe رئيس الولايات المتحدة فى ذلك العهد وأصدر بياناً بسياسة أمريكا فقال :

« إن الظروف الحالية مناسبة لنعلن أنه لا يجوز من الآن لأية دولة أوربية أن تعد القارتين الأمريكيتين ، اللتين اعتنقتا مبادىء الحرية والاستقلال وحافظتا عليها ، مكاناً صالحاً للاستعمار فى المستقبل ؛ وأننا نعد هذا كمبدأ لنا »

أما عن تعرض الدول الأجنبية لشئون أمريكا الشمالية أو الجنوبية فقد قال منرو ما يلى :

« إن سكان الولايات المتحدة ليحملون أصدق الشعور والعطف نحو الحرية والسعادة اللتين يتمتع بهما إخوانهم فى الإنسانية المقيمون على الشاطىء الشرقى من المحيط الأطلنطى . ونحن لم نتدخل قط فى الحروب التى قامت بين دول أوربا بسبب شئونها الخاصة بها ، لأن مثل هذا التدخل يتنافى مع سياستنا . أما إذا اعتُدِىَ على حقوقنا ، أو هددها خطر ، فإننا حينئذ لا نصبر على

ضيم ، بل نعد العدة للدفاع عن أنفسنا . ونحن بحكم الضرورة ، ولأسباب لاشك واضحة ، مرتبطون ارتباطاً مباشراً بكل ما يحدث فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية . وبهذا الاعتبار يختلف النظام السياسى للدول المتحالفة[1] اختلافاً جوهرياً عن النظام الأمريكى. وهذا الاختلاف ناشئ عما بين حكومات هذه الدول من فوارق ، وقد قطعت هذه الأمة بأسرها عهداً على نفسها أن تدافع عن نظامها الذى أحرزته ببذل الدماء الغزيرة والأموال الكثيرة . لذلك نرى أن الصراحة والعلاقات الودية التى تربط الولايات المتحدة بتلك الدول تدعونا أن نصرح بأننا سنعد كل محاولة من جانبهم لنشر نظامهم فى أية بقعة من الأمريكتين الشمالية والجنوبية خطراً على سلامنا وأمننا . ونحن لم نتعرض ، ولن نتعرض ، لكيان مستعمرات الدول الأوربية وأملاكها القائمة الآن . أما الحكومات التى أعلنت استقلالها واحتفظت به واعترفنا لها به ، فإذا تعرضت لها أية دولة أوربية لاستعبادها أو لتوجه مستقبلها بأى شكل كان ، فإننا نعد ذلك مظهراً دالاً على الشعور بعدم الصداقة نحو الولايات المتحدة . »

---

(١) يراد بعبارة « الدول المتحالفة » هنا الدول الأوربية فى ذلك الوقت ، التى كان من أهمها روسيا والنمسا وبروسيا . وكانت كل واحدة منها إمبراطورية تحت حكم إمبراطور دكتاتورى .

لقد كان هذا مبدأ مُنْرو ولا يزال إلى اليوم ركناً أساسياً من الأركان التي تقوم عليها السياسة الأمريكية .

نشأ هذا المبدأ بحكم الضرورة ، وكان إعلانه بعد محادثات جرت بين إنجلترا والولايات المتحدة بشأن التطورات الحديثة فى العالم الجديد . وإذا نحن جردناه من الصيغة الدبلوماسية التى وضع فيها ألفيناه يقول :

« لا يجوز للدول الأجنبية أن تقحم نفسها أو تتدخل فى شئون العالم الجديد . وإذا حدث شيء من هذا فسوف لا تتوانى الولايات المتحدة فى دخول الحرب . »

نعم هذا هو مبدأ مُنْرو الذى قبلته دول العالم العظمى من غير اعتراض . فما سبب ذلك يا ترى ؟

كانت أوربا فى تلك الأيام لا تزال تستجمع قواها بعد صدمة الحروب النابوليونية وما جرّته من ويلات . وكانت قد هدأت تلك الروح المتوثبة التى دفعت بفرنسا وإسبانيا إلى الاستعمار فى الغرب . فإسبانيا كانت أضعف من أن تسترجع مستعمراتها فى العالم الجديد بعد أن عقدت هذه المستعمرات العزم على البقاء حرة . وكانت بريطانيا قد أيدت الولايات المتحدة فى سياستها حداً لمطامع منافسيها من الدول الأوربية وإظهاراً لصداقتها مع الجمهوريات اللاتينية الأمريكية . وأما فرنسا فكانت تنشد السلم . وأما روسيا

فكانت قد أنشأت مراكز للتجارة بالقرب من سان فرنسيسكو ، ولكن لم يكن لها مآرب استعمارية ملحة . ولذلك قبلت عن طيب خاطر — بعد مفاوضات — أن تجعل خط العرض ٤٠′ ٥٤° حداً فاصلاً لما تطلبه فى القارة الأمريكية . وهكذا تم الأمر وأتاحت الظروف لا للولايات المتحدة فحسب ، بل لجميع دول العالم الجديد أن تكون حرة فى اختيار الطريق الذى تريده لنفسها .

لم تكن الولايات المتحدة دائماً حكيمة وعادلة فى معاملتها لجيرانها فى العالم الجديد ، ولكن أولئك الجيران يعلمون — كما تعلم الولايات المتحدة — أنه إذا حاولت أية دولة أجنبية أن تغزو دولة من دول العالم الجديد ، أو تستولى عليها بقوة السلاح ، فلابد من نشوب الحرب فوراً بين الدولة المعتدية والولايات المتحدة . هذا هو الطريق الوحيد .

لقد كان مبدأ مُنْرو نتيجة حتمية للظروف السائدة حينذاك . على أنه كان هناك دافع آخر قوى ، ذلك هو الرغبة الشديدة فى أن يكون العالم الجديد عالماً جديداً حقاً ، خالياً من ضغائن العالم القديم ومشاكله ونضاله فى سبيل السيادة . وقد عبّر چفرسن عن هذه الرغبة تعبيراً لا لبس فيه ولا إبهام حين قال : « يجب أن تكون القاعدة الأساسية الأولى فى سياستنا ألا تتدخل أبداً فى منازعات أوربا ومشاحناتها . والقاعدة الثانية هى ألا نسمح

لأوربا مطلقاً بالتدخل فى شئون هذا الجانب من المحيط الأطلنطى..
إن حوادث أوربا تجعل الجو ملبّداً بالغيوم ... ولكنى رغم هذا لن أعتقد أن جهودنا ذهبت سدى . وسوف لا أموت فاقد الأمل فى ازدياد النور وتقدم الحرية . وحتى لو حدث أن حجبت غيوم الوحشية والاستبداد نور العلم والحرية فى أوربا مرة أخرى ستبقى هذه الأمة للاحتفاظ بالنور والحرية وإعادتهما إليها . »

إنه لقول واضح . وقد ظل الأمريكيون سنوات طويلة وهم يشعرون هذا الشعور نفسه . إنهم كانوا يعملون شيئاً جديداً وكانوا يعرفون أنهم يعملون شيئاً جديداً ، كانوا يقومون بتجربة فى الحياة ، وفى طريقة الحكم ، وفى حقوق الإنسان . وقد أرادوا أن يُتركوا وشأنهم ليتمكنوا من القيام بهذه التجربة . وقد شعروا — إن خطأ وإن صواباً — أنهم شعب قد وقف حياته على القيام بهذه التجربة . فمن أراد من الأوربيين أن يأتى إليهم ويعاونهم فيها فعلى الرحب والسعة ، ولكن عليهم أن يتركوا وراء ظهورهم تبعيتهم السياسية القديمة ، وعليهم أن يعلنوا أن طريقة الأمريكيين فى الحياة هى الطريقة الصالحة ؛ إذ أن أى انتقاد لطريقتهم فى الحياة كان يسبب الإعراض .

لقد كانت حال الأمريكيين هذه منبتاً للخير وللشر فى وقت واحد ، فقد جعلتهم يشعرون باعتمادهم على أنفسهم وباستقلالهم ،

ويدركون حق الإدراك معنى حريتهم ولا يبالون مطلقاً أن يغامروا بالحاضر فى سبيل المستقبل . على أن هذه الحال قد شهرتهم بأنهم قوم مختالون مباهون لا يطيقون أن يوجه إليهم انتقاد . فإذا أرى الأمريكىُّ الأوربىَّ مجموعة من الأكواخ الخشبية فى مستنقع ملىء بالملاريا وسَمَّى تلك المجموعة مدينة عظيمة ، لم يدر الأوربى أيَضْحَك فى وجه محدثه أم يخاطبه بعبارات وديعة كما يخاطب العاقلُ المجنونَ . والحقيقة أن الأمريكى لم يكن ينظر إلى ما هو واقع تحت بصره من خنازير ذات أنوف مستطيلة ، وقوم محمومين تعلو وجوهَهم صفرة ، ولكنه كان ينظر إلى ما ينبغى أن يكون بعد خمسين سنة . لذلك كان يميل كل الميل إلى تسمية المكان « أثينا الجديدة » أو « بالميرا » أو « عدن » ولا يجد أى سخف فى التسمية . وإذا ما قال الأوربى إن واشنطن التى لم يكمل نموها بعد ليس فيها بناء جميل كالپارثينون ، اعتبر الأمريكىُّ الأوربىَّ متعجرفاً متحيزاً لا يستطيع أن يدرك نعيم الحرية حين يراها ، واعتبر الأوربىُّ الأمريكىَّ طفلاً جاهلاً متفاخراً . وهكذا حدث أحياناً سوء تفاهم بين الجانبين .

لقد انفصلت أمريكا عن أوربا وبعدت عنها سياسياً وروحياً . ومن الإنصاف أن نذكر أن أوربا لم تطلب ولم تشأ معاونة أمريكا فى الشئون العالمية . ولم يكن السفير أو الوزير الأمريكى فى بلاط

ملوك أوربا شخصاً ذا هيبة لأنه كان يظهر فى ثيابه العادية من غير وسام أو لقب من ألقاب التشريف . فإذا اتفق أن كان رجلاً ممتازاً — كما كان بعضهم — احتفى به الأوربيون وزادوا فى مظاهر احترامه ، ولكنهم ما كانوا ليستشيروه أو ليرجوا معاونة أمته فى شأن من شئون أوربا العامة . نعم كان هناك شعور بالصداقة نحو أمريكا واهتمام بالتجربة الأمريكية ، وإذا زار أحد الأمريكيين العظماء مثل دانيال وِبْستر Daniel Webster بريطانيا أو أوربا رحبوا به أجمل ترحيب . هذا ، وقد ظل تيار الهجرة إلى أمريكا يتدفق ، تيار الرجال والمال اللازمين لتكوين أى قطر جديد . وقد كانت هنالك رابطة أخرى بين أوربا والعالم الجديد هى إقبال أمريكا دون تمييز على كل ما ينتمى للدنيا القديمة من كتب وفن وموسيقى ومعمار وعلم ورجال ملمين بهذه الأمور ، وصار أهل أوربا وبريطانيا يدركون بالتدريج أن بين الأمريكيين أفراداً قد يضيفون شيئاً إلى ثروة العالم فى المعارف والعلوم . على أنه بالرغم من تيار الهجرة ومن هذه الرابطة أخذت أوربا وأمريكا تتباعدان فى الفكر وفى الشعور وفى طرق الحياة . وكان حتماً أن يتباعدا .

كان الأمريكى العادى فى سنة ١٨٤٠ مثلاً ينظر إلى أوربا باعتبارها متحفاً لآثار الماضى ، وقد تكون طريفة ومسلية إذا

زارها ، ولكنه كان يعدها معرضاً لآثار الماضى ورمزاً لكل ما كان يود أن يتخلص منه . هذا إذا فكر فى أوربا على الإطلاق.

أما الأوربى فى ذلك العصر نفسه ، فكان يعتبر أمريكا برارى يسكنها أقوام شبه متمدينين ، ويسلخ الهنود فيها رؤوس الناس . وإذا أرسل إليه ابن عمه من أمريكا رسائل وذكر له فيها أموراً غريبة لم يسعه إلا أن يقول : « ليس هذا مستبعداً عنه ، فقد كانت أفكاره طول حياته غريبة » .

وفى أثناء هذه السنين الطويلة استمرت أمريكا تنمو وتكبر .

لقد كان نموها سريعاً ، فامتدت أطرافها إلى الغرب والجنوب والشمال الغربى . وعلى حد تعبير الأمريكان : نمت نمواً لا يجاريها فيه شىء على وجه البسيطة . وقد ظلت الولايات الثلاث عشرة وقتاً طويلاً محصورة لوجود جبال أَپَلَيشن Appalachian أمامها كسد منيع ، ولكنها امتدت فجأة وتدفقت تدفق الزئبق. ولم تأت سنة ١٨٢١ حتى كان قد انضم إلى الاتحاد إحدى عشرة ولاية أخرى هى : ڤِرْمنت Vermont ومِسِيسِپى Mississippi وآلاباما Alabama وإلينوى Illinois وإِنْدِيانا Indiana وكِنْطكى Kentucky وتِنيسِى Tennessee ولويزيانا Louisiana ومَيْن Maine ومِزُورى Missouri وأوهايو Ohio فقد أخذ الرجال والنساء يحزمون أمتعتهم ويحملونها على مركبات ويرحلون نحو

ألف ميل وهم يبحثون عن أرض جديدة يستوطنونها فى الأراضى الغربية الغنية المحفوفة بالأخطار . وكانوا يأخذون معهم أولادهم وما غلا ثمنه وخف حمله وفسائل الورد وشتائل التفاح والكتاب المقدس وغيره من الكتب و بندقياتهم . لقد كانوا ينحدرون مع تيار النهر فى قوارب مسطحة القعور و يكافحون قبائل الهنود والأحوال الجوية المضايقة . كانوا يجوعون و يقاسون ، ولكنهم استقروا فى الأرض وثبّتوا أقدامهم . واستمر فى السير تجاه الحدود رجال مغامرون ، وظلوا مندفعين يستحثهم دافع نفسى امتلك عليهم قلو بهم . وكان بين هؤلاء مهاجرون من الدانيمرك والسويد وألمانيا و إرلندا . فبعد رحلة طويلة متعبة من أوربا لاقوا فيها الكثير من المشاق والصعاب بدأوا رحلة برية يتبعون فيها مسير الشمس نحو الغروب . فقضوا أياماً كثيرة أعقبتها أيام كثيرة حتى وصلوا إلى أرض معشبة غير مسكونة . وهناك أطعموا دوابهم التى جاءت بهم إلى تلك البقاع ، و بنوا لأنفسهم من جذوع الأشجار ومن الحشائش بيوتهم الأمريكية الأولى .

ولكن لم كل هذا ؟

إنهم لو سئلوا لأجاب كل واحد منهم أنهم ارتحلوا رغبة فى تحسين أحوالهم . وقد حدث كثيراً أن حسنوا أحوالهم . ولكن

الأراضى التى تركوها وراءهم كانت على درجة من الخصوبة ترضى معظم الناس .

والحق أنه لا يمكن منطقياً تعليلُ الدافع لهذا التوسع الأمريكى السريع . ولا تعليل لذلك إلا أنه حدث ، وكفى . لقد كانت الحدود ، لا ، بل الفرصة التى تتيحها الحدود ، والأرض الخصبة التى تنتظر رجالاً يكدون فوقها ، بمثابة المغناطيس . فاجتذبت إليها الشجعان والمغامرين كما اجتذبت أولئك الذين لم يصادفهم نجاح فى أوطانهم . هنالك فى تلك البقاع التى لم يكن بها غير قبائل الهنود الرحالة ظهر فجأة رجال ، رجال جاءوا من جميع أنحاء العالم وهاجموا قارة عرضها نحو ثلاثة آلاف ميل ، وغزوها فى فترة من الزمن لا تزيد على عمر رجل واحد . وقد دفعوا ثمن هذا التوغل كفاحاً وحرباً ودماء . كان المستوطنون الأمريكيون قد استقروا فى تكساس Texas فى سنة ١٨٢٣ ولم تأت سنة ١٨٣٥ حتى انفصلوا عن حكومة المكسيك وأنشأوا جمهورية تكساس المستقلة . ثم طلبوا أن ينضموا إلى الولايات المتحدة ، ولكن ظل موضوعهم بلا حل مدة عشر سنوات، وبقيت تكساس محتفظة بكيانها . وفى سنة ١٨٤٦ نشبت حرب بين الولايات المتحدة والمكسيك كانت نتيجتها أن انضمت تكساس، بل ونيومكسيكو وكليفورنيا إلى جمهورية الولايات المتحدة النامية . وقد عارض كثير

من الأمريكيين المفكرين المخلصين فى الحرب ضد المكسيك واعتبروها حرب اعتداء ، بينما أيدها آخرون واعتبروها أمراً لا مفر من القيام به فى تاريخ أمريكا . على أنه لا بد من القول بأن أهل تكساس بمجرد أن تذوقوا طعم الاستقلال عقدوا العزم على ألا يرجعوا الحكم المكسيكى . وليس من المعقول أن يتم السير غرباً نحو المحيط الهادى دون تعريج على تكساس ولا سيما بعد نزول الأمريكيين بها وتثبيت أقدامهم فيها . وبذلك أضيفت أراض جديدة فسيحة إلى الولايات المتحدة النامية .

وقد استطاع الأمريكيون فى مدى إحدى وخمسين سنة أن ينتشروا من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى ، فاستوطنوا فى أواسط البلاد ، وزاروا الشمال الغربى والجنوب الغربى ، وأقاموا فيهما وعبروا جبالاً لا تقل ارتفاعاً عن جبال الألب، وأنهاراً أوسع من الدانوب، وساروا أياماً كثيرة فى سهول ملآى بالأملاح القوية وفى الأراضى الصحراوية المعروفة بوادى الموت ، حاملين معهم عَلَمَ النجوم والأشرطة واللهجة الأمريكية إلى أصقاع كانت تشير إليها الخرائط بأنها « الصحراء الأمريكية العظيمة المجهولة » . نعم انتشر فى القارة أمريكيون خليط من الإنجليز والألمان والسويسريين والفرنسيين والإيطاليين والإسكندينافيين . وكان بينهم جنود قدماء قاتلوا فى الحروب النابليونية ، وأوربيون

منفيون بعد ثورات عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ ، وفلاحون إرلنديون جائعون ، بل ومن كل من يعلل نفسة بفرصة جديدة .

وفى تلك الأثناء ظهر فى أمريكا اتجاه آخر قوى. فإن الانقلاب الصناعى كان دافعاً شديداً لصنع الآلات التى تعمل عمل الكثيرين من الرجال ، فنشطت المصانع والمعامل الأمريكية وعلت جعجعتها. وقد أخذ الأمريكيون يشترون ويستعيرون ويحاكون ويسرقون ويبتكرون ويحسنون ما استطاعوا من المخارط والأنوال والمحركات الميكانيكية وجميع الآلات الصناعية . وكانوا قد أظهروا مقدرة فائقة فى ممارسة هذه الأمور، ولا سيما أهل نيو إنجلند . وكان فلاحو ولاية كنيتيكت بالفطرة ذوى إلمام بجميع أنواع الحرف. وكان عند الأمريكيين ما يحتاجون إليه من القوى المائية والفحم والحديد وجميع المعادن . وكان بينهم صناع من الطراز الأول ، فكانت السفن الشراعية التى يصنعونها تعد من عجائب الدنيا . ولم يكونوا مقيدين فى إنتاجهم بأى قيود اقتصادية أو تجارية . فاتسع المجال للذكاء والاختراع . لقد كان هنالك أربعة رجال اخترعوا سفناً بخارية قبل أن يسافر فُولْتن Fulton بسفينته البخارية الأولى فى نهر الهُدْسن ، تلك التى من أجلها اعترف له الناس بأنه صاحب الاختراع . وكان الأمريكيون لا يحجمون عن دفع ثمن للذكاء والمهارة . ولذا كان فى وسع كل صانع حاذق

أن يكون ذا مستقبل حسن فى أمريكا . وقد اخترع محلجة القطن أمريكى مَن نيو إنجلند يسمى إيلى وِتْنِى Eli Whitney

كانت محلجة القطن آلة فى غاية البساطة واختراعاً أمريكياً صرفاً ، وقبل اختراع هذه الآلة كان القطن ذو الزغب الأخضر ، وهو القطن الأمريكى ، يفصل من بذوره بالأيدى . وكانت العملية شاقة مملة . وكان الزنجى يمضى يوماً بأكمله فى تنقية بضعة أرطال . ولذلك لم تكن للقطن الأمريكى كمحصول قيمة تذكر لأن إنتاجه كان أمراً صعباً حتى باستخدام العبيد .

فلما ظهرت آلة الحلج الميكانيكية غيرت سريعاً كل هذا . كان اختراعها فى سنة ١٧٩٣ ، ولكن لم يمض غير سنوات قليلة حتى شاع استعمالها فى جميع الولايات الجنوبية ، وارتفع إنتاج القطن فى الولايات المتحدة من ١٤٠٠٠و رطل فى سنة ١٧٩١ إلى ٨٩٠٠٠و٠٠٠و رطل فى سنة ١٨١٠ . وكان اعتماد الولايات الجنوبية قبل ذلك على زراعة التبغ والنيلة . غير أن الظروف تغيرت وصار القطن مَلِك الحاصلات الزراعية . وكانت أسواق العالم متعطشة للقطن ، ولا قطن إلا بالعبيد . ولذلك فزيادة القطن كان معناها زيادة العبيد .

ولكن لم كان هذا ؟ كان هذا لأسباب عديدة ، فإن استعباد الزنوج فى تلك الأيام كان أمراً قديماً شائعاً فى ولايات الجنوب

ومعروفاً فى بعض ولايات الشمال . ولكن أمره لم يدم طويلًا فى الشمال لأسباب ، منها فساد الجو ، ومنها أن المزارع فى ولايات نيو إنجلند مثلاً — أو فى جهات الحدود — كانت تقوم فى الغالب على جهود العائلات ، وكذلك لم يعتمد الناس على محصول زراعى رئيسى واحد لتحصيل المال . فلم يكن استخدام العبيد إذن مجدياً اقتصادياً . وكانت ضده موانع كثيرة .

أما فى الجنوب فلم يكن الأمر كذلك ، فقد كان الجو هنالك ملائماً لاستخدام العبيد لأنه أدفأ وأكثر اعتدالاً . ولذلك كان فى استطاعة الزنجى المجلوب حديثاً من إفريقيا أن يحتمل الجو ويعيش . وكانت زراعة التبغ شائعة هناك من البدء ، وكانت زراعته فى مساحات واسعة تحتاج إلى كثير من العمال غير المهرة ليتعهدوها .

وبالرغم من ذلك أتى على تجارة الرقيق فى الجنوب حين من الدهر خيل فيه للناس أنها على وشك الانقراض . وكانت أمنية واشنطن وجفرسن وغيرهما من قادة المفكرين فى الجنوب أن تموت هذه التجارة موتاً أبدياً . وإذا نظرنا إلى الرقيق ، بغض النظر عن الوجهة الإنسانية ، وجدنا أنه كان يستغل فى الزراعة بطريقة بدائية وغير اقتصادية . فلم يكن من المعقول أن يتعهد العبد أرض سيده بالعناية التى يتعهد بها الرجل الحر أرضه ، اللهم

إلا إذا كان العبد مخلصاً لسيده . أما صاحب المزرعة فإن كان رجلاً فاضلاً فإنه يشعر بأن عليه تبعة العناية بعبيده سنة بعد سنة، لأنه مرتبط ارتباطاً غريباً بهذا النظام الذى عاد عليه بالأرباح .

ولكن حين تبوأ القطن مكانته العالية تغيرت الحال لأن الزيادة فى القطن كان معناها زيادة العبيد ، وهذه بدورها كان معناها زيادة القطن ، وكلتا الزيادتين معاً معناها فرصة للإثراء . ونتيجة لذلك ازداد الرق تأصلاً وانتشاراً بدلاً من أن ينقرض .

ولم يكن جميع أهل الجنوب يملكون العبيد . كلا، فإن أقلية صغيرة كانوا يملكون عدداً وافراً من العبيد ، بينما كان يملك آخرون — وهؤلاء أيضاً أقلية — بضعة عبيد أو عبداً واحداً . وكانت تجارة الرقيق على العموم تدر ربحاً وفيراً على أصحاب المزارع الكبيرة ، وربحاً متوسطاً على أصحاب المزارع المتوسطة . ولكن الربح استحال على الفلاح الصغير المكافح الذى لم يكن لديه مال يشترى به عبداً . على أن ملاك العبيد كانوا فى الغالب أغنياء المجتمع وزعماءه وكان القول قولهم .

وهكذا بينما كان التوسع الأمريكى يمتد نحو الغرب كان ينمو جنباً إلى جنب نظامان للحياة مختلفان فى الولايات المستوطنة ، النظام الصناعى ومعه الزراعة التى قام بها رجال أحرار فى الشمال، والنظام الزراعى وكان يقوم على أكتاف الأرقاء فى الجنوب .

وكان حتماً أن يأتى يوم يصطدم فيه هذان النظامان . وقد اصطدما فعلاً لأنهما كانا نظامين متباينين تمام التباين . وقد أوضح أبرهام لنكولن الأمر بإيجاز محكم حين قال : « إن بيتاً ينقسم على نفسه لايمكن أن تقوم له قائمة . وفى اعتقادى أن هذه الحكومة لن تستطيع الثبات إذا ظل نصف الولايات يعترف بنظام الاسترقاق والنصف الآخر لا يعترف به . إننى لا أتوقع أن تنفصم عرى الاتحاد ، ولا أن أرى البيت متداعياً ، بل أنتظر أن ينتهى هذا الانقسام ويصبح البيت مستقراً على أمر واحد إما هذا و إما ذاك . »

وفى جميع السنين التى مرت على الجمهورية النامية كان الكفاح فى سبيل السيادة مستمراً بين الشمال والجنوب ، تشتعل ناره تارة وتخبو تارة أخرى إلى حين ثم تشتعل . وكان كل من الجانبين يسعى لاستمالة الولايات الغربية الجديدة التى بدأت تدخل فى الاتحاد . وكثر التساؤل : أتتبع هذه الولايات نظام الاسترقاق أم نظام الحرية ؟ أتتبع نظام الجنوب أم نظام الشمال ؟ وكان حتماً إذا كسب أحد الجانبين الولايات الجديدة أن ينخذل الجانب الآخر عند التصويت فى الكونجرس . وقد وصلوا فى أوقات مختلفة إلى اتفاقات مؤقتة ، ولكن أحداً من هذه الاتفاقات لم يكن حاسماً ، فلم تحل العقدة بل تأجل النضال إلى حين . كانت

الولايات الجنوبية لعهد غير قصير متزعمة الاتحاد إذ كان أربعة من الرؤساء الخمسة الأول من أبناء ڤرجنيا ، ولكنها اضطرت إلى التقهقر تدريجياً حتى صارت تعتمد على الولايات الشمالية اقتصادياً وسياسياً . وعلى ذلك لم يكن فى وسعها إنشاء صناعات خاصة بها، لأن معنى هذا أنها تتخلى عن نظام المزارع الذى توطد فيها .

يضاف إلى هذه الصعوبات مسألتان أخريان هما مسألتا مبدأ .

أما الأولى فكانت مسألة حقوق الولايات ، فقد كثر التساؤل حول تحديد ماهية الاتحاد وكنهه : أكان رابطة دائمة بين جميع الولايات لا تنفصم عراها أم كان مجرد شركة تستطيع أية ولاية أن تنسحب منها متى شاءت ؟ وأية الكلمتين أقوى «المتحدة» أم «الولايات» ؟ أكانت الولايات المتحدة شجرة لا يمكن تقطيعها أو تقسيمها من غير أن تموت الشجرة بأكملها ، أم كانت شركة تجارية يمكن حلها دون ضرر ؟ وعاد إلى الظهور ذلك السؤال القديم الذى كان قد استولى على عقول الناس طول هذه السنين: أيعتبر الفرد نفسه أمريكياً أولاً وڤرجنياً ثانياً ، أم يعتبر نفسه ڤرجنياً أولاً وأمريكياً ثانياً ؟

وأما الثانية فكانت : أيجوز وجود الاسترقاق فى أمة وقفت نفسها للحرية وللدفاع عن حقوق الإنسان ؟ وقد اختلطت المسألتان إحداهما بالأخرى اختلاطاً معقداً

قام وقتذاك فى الولايات الشمالية رجال ونساء متدينون ورعون يندون بنظام الاسترقاق كله ، ويعتبرونه ظلماً إنسانياً لا يحتمل . كانوا أحياناً يجمحون ويسرفون فى تنديدهم ، ولكنهم كانوا مندفعين بعقيدة متوقدة . فكانوا يحتجون احتجاجاً عنيفاً على انتشار تجارة الرقيق ، ويطعنون فى القوانين التى أباحت لأسياد العبيد فى الجنوب أن يستردوا من هرب من عبيدهم إلى الشمال . وأنشأوا جمعيات سرية لمساعدة العبيد على الإفلات من نير العبودية ، كما أرسلوا رجالاً وأسلحة إلى المناطق الواقعة على الحدود كى تضمن بقاءها أرضاً حرة . نعم كان هؤلاء أقلية ولكنها أقلية مؤمنة بعقيدتها مخلصة ومصمّمة على رأيها . فكانت تغرق فى المناداة بعقيدتها . وقد سمى رجال هذه الطائفة « المطالبين بإلغاء الرق » Abolitionists . وكان تنديدهم بالرق تنديداً فى الحقيقة بالولايات الجنوبية جميعها .

وقد عُدّ هؤلاء القوم فى نظر الذين يؤمنون بهم أبطالاً من أولياء الله . أما أهل الجنوب فكانوا يعتبرونهم متعصبين متطرفين يتعرضون لشئون لا تعنيهم . ولما كتب « المطالبون بإلغاء الرق » كتباً عن مظالم الرق وسيئاته أجابتهم صحف الجنوب مشيرة إلى ساعات العمل الطويلة التى يقضيها العمال فى مصانع نيو إنجلند وإلى الأجور الزهيدة التى يتقاضونها . لقد كان هذا حقيقة واقعة،

ولـكنه لم يضع حداً للخلاف القـائم . وأخذ كل من الجانبين يتشبث برأيه تدريجياً ، و بعد ذلك استمر الرأى ينمو بسرعة عظيمة حتى صار عقيدة راسخة ، وحتى أن الجنو بيين الذين لم يكونوا يوماً ما من الذين يؤمنون بالاسترقاق أخذوا يعلنون بشدة أن للجنوب الحق فى إدارة شئونه بالطريقة التى يراها حتى ولو أدى ذلك إلى الانفصال من الاتحاد . كما أخذ أهل الشمال الذين لم يكونوا من طائفة « المطالبين بإلغاء الرق » يعلنون بدورهم أنه يجب الإبقاء على الاتحاد ولو أدى الأمر إلى حرب أهلية .

وفى اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٥٩ قام چون براون John Brown وأعوانه بهجوم مسلح على بلدة فى ڤرجنيا تدعى «هارْپرز فيرى» Harpers Ferry لتحرير بعض العبيد ، ولـكن الهجوم أخفق ولم يحقق الغرض . و بالرغم من أن هذا الهجوم قد أخفق فقد سجلت الحادثة اسم چون براون على صفحات التاريخ الأمريكى . واتسع الشق بين جانبى الاتحاد حتى صار هوة عميقة . وقد عدّ أهل الجنوب چون براون رجلاً متعصباً سفاحاً سعى إلى إثارة ما كان يخشاه جميع الجنو بيين ألا وهو تمرد العبيد . أما أهل الشمال — حتى أولئك الذين أنـكروا عليه عمله — فقد عدّوه بطلاً مات فى سـبيل عقيدته ميتة الأبطال .
ولما جاء انتخاب الرئيس فى سنة ١٨٦٠ تمـكن الحزب الجمهورى

من كسب أصوات جميع الولايات الحرة . أما أهل الجنوب فقد انقسمت أصواتهم بين ثلاثة مرشحين للرئاسة وفاز برئاسة الولايات المتحدة مرشح الحزب الجمهورى أبرهام لنكولن من ولاية إلينوى .

ابرهام لنكولن

من كان هذا الرجل المدعو أبرهام لنكولن ؟

ولد أبرهام لنكولن فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ فى كوخ من جذوع الشجر بولاية كِنْطكى Kentucky وكان أبوه توماس لنكولن من رجال الحدود . كان رجلاً لطيفاً ولكنه كان قليل الحيلة والتدبير فى عمله . أما أمه — نانْسِى هانكس — فكانت بنتاً غير شرعية وفدت بها أمها طفلة تحملها بين ذراعيها وهى تقطع الغابات من ڤرچنيا إلى كنطكى . وكانت ولادة أبرهام لنكولن على فراش مغطى بجلود الدببة، فى كوخ ذى باب واحد ونافذة واحدة . هذا هو أبرهام لنكولن الذى نجد له اليوم فى واشنطن نصباً عظيماً من المرمر يؤمه الجماهير الغفيرة كل يوم ، لينظروا إلى التمثال الذى يمثله وهو جالس ، حتى إذا ما رأوا وجهه المتغضن المفكر خفضوا من أصواتهم احتراماً ، لعلمهم أنهم ينظرون إلى وجه رجل عظيم . واليوم أيضاً يبدو وجه لنكولن على أصغر النقود الأمريكية قيمة — على السنت النحاس — وبجانبه كلمة « الحرية » . وكلا الرمزين لائق به ؛ التمثال العظيم وقطعة النقود الصغيرة التى يتداولها الشعب ، لأن لنكولن كان

رجلاً عظيماً ، ولأنه قد عاش ومات من أجل عامة الشعب الذين أحبهم.

وكانت أسرة لنكولن قديمة العهد فى أمريكا . وكان أفرادها أقوياء الأجسام ومن الطبقة المتوسطة بين الناس ، لا يرتفعون كثيراً فى الحياة ولا ينخفضون كثيراً . كان جد أبرهام ضابطاً فى الحرس الأهلى بفرچنيا . ثم رحل بعد الثورة إلى كنطكى ، وكانت إذ ذاك فى أول عهد استعمارها ، فقتله الهنود هناك . هذا ما كان من أمر جده ، أما جدته لأمه فقد كان مجيئها إلى كنطكى كما ذكرنا . وإذاً فقد انحدر أبرهام من أصلين مقدامين . وكانت أيام حداثته مقرونة بالإقدام .

انتقل توماس لنكولن إلى إنديانا ومعه زوجه وولداه — أبرهام وشقيقته — فمهدوا لأنفسهم قطعة من الأرض وبنوا عليها كوخاً . وكانوا ينامون على فراش من أوراق الأشجار اليابسة ، ويمشون حفاة معظم أيام السنة . وكان الأب يقضى وقته فى القنص وقليل من فلاحة الأرض ، بينما كانت الأم تعنى بأعمالها المنزلية فى الكوخ وبولديها . ولما بلغ أبرهام الثامنة من عمره كان قد تعلم استعمال الفأس ، وكان فى هذه السن يمشى مع أخته ثمانية عشر ميلاً فى ذهابهما وإيابهما من مدرسة ذات حجرة واحدة .

وتوفيت أمه وهو فى التاسعة من العمر ، فتزوج أبوه من امرأة طيبة عاقلة أحبت الولدين وعُنيت بهما كما لو كانا ولديها . نما أبرهام

وصار طويل القامة ، قوى الجسم ، يحسن استعمال الفأس ، مصارعاً من الطراز الأول . وقد عمل عند أناس مختلفين ؛ فكان يفلق قطع الخشب عند قوم ، ويقوم بأعمال شتى عند آخرين . ولكنه كان لا ينقطع عن القراءة والتفكير . ولم تكن هنالك فى جهات الحدود كتب كثيرة ، ولكنه بحث عنها وتوصل إلى ماوجد منها وقرأها جميعها المرة تلو المرة ، وَلَكِنْ قال لأصدقائه : « إن فى الكتب ما أريد معرفته من الأمور . وأعزّ صديق لى هو الذى يأتينى بكتاب لم أقرأه » . وكان يطيل السهر فى القراءة منبطحاً على الأرض أمام ضوء نار الموقد . كان يقرأ ويفكر فيما يقرأ .

كان يحب السمر والمزاح ويجيد سرد القصص بشكل يدعو للإعجاب . وقد قيل عنه إنه يؤثر سرد القصص على العمل ، ولكنه كان معروفاً عنه بأنه يستطيع أن يعمل بجد واجتهاد لو أراد ذلك . وقد ظل طول حياته مشغوفاً بسرد القصص ، فكان يسردها تارة ليوضح بها أمراً وتارة لمجرد الفكاهة والمتعة . هذه ناحية من نواحيه . وهناك ناحية أخرى تميز بها ، هى شعور عميق من الكآبة يغمر وجهه كالموجة . فكان يبدو فى هذه الحال كأنه أكثر الناس غماً . ومن يدرى ؟ فربما كان كذلك .

كان يريد شيئاً ولكنه لم يدر كنهه . وقد اتخذ لنفسه حانوتاً ردحاً من الزمن ، ولكنه لم يفلح وتراكمت عليه الديون . ومضت

عليه سنون وهو يوفى أصحابها حتى دفعها جميعها كاملة . وقرأ بعض كتب القانون وامتهن الملاحة النهرية ومسح الأرض ، ثم كان وكيلاً لمكتب بريد . بدأ يخطب الناس فى مناسبات مختلفة فانكشف له أنه يستطيع الخطابة فاستمر يزاول الخطابة بكلام سهل واضح يفهمه الناس . ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره انتخب عضواً فى المجلس التشريعى لولاية إلينوى فمرن فيه على أساليب السياسة وخبر الناس . ولكنه ظل كما كان أولاً يريد شيئاً ويبحث عن شيء . وأحب فتاة ، ولكن الموت عاجلها قبل أن يقترن بها ، كما عاجل أمه من قبل وشقيقته وهى فى الثانية عشرة من عمرها . فكان الموت يتسرب من وقت لآخر إلى حياته كاللحن الموسيقى المحزن . ولم يكن فى مقدور القصص الفكاهية أن تغير من حقيقة الموت ، تلك الحقيقة العجيبة التى لا تقبل جدلاً ولا شكًّا .

ولما بلغ الثامنة والعشرين من عمره ذهب إلى سپرِنْجفِيلد Springfield من أعمال إلينوى ، وفى جيبه سبعة دولارات ليبدأ حياته كمحام . وكان عدد سكان سپرِنْجفِيلد فى ذلك الوقت ١٥٠٠ نسمة ، فلم تكن بحال أكبر مدينة رآها لأنه كان قد ذهب من قبل فى صندله النهرى إلى مدينة نيو أورْلِنز ، على أن سپرِنْجفِيلد كانت فى نظره مدينة كبيرة .

استقر لنكولن فى سپرنجفيلد ، وتزوج من مارى تود Mary Todd ، وكانت امرأة ذكية طموحة حادة المزاج . وقد رزقا أطفالاً ، وكان يحب أن يلعب معهم حتى حينما كانوا يبعثرون الأقلام فى مكتبه ويلوثون أنحاءه بالحبر ، وقد أصبح محامياً مشهوراً ناجحاً . وعرف فيه الناس الأمانة فسموه «الأمين» . وكانوا يعلمون أنه لا يترافع فى قضية إلا إذا كان مقتنعاً فى قرارة نفسه أنه يدافع عن وجهة الحق . وانتخب ليكون عضواً فى الكونجرس ، ولكن بعد انتهاء مدته لم يعد انتخابه . وقد شعر أصدقاؤه بسوء الحظ وحسبوا أنه سيمضى بقية حياته محامياً فى بلدة صغيرة ذا شهرة محلية ، بارعاً فى سرد القصص ، يتمنى الناس سماعه . أما هو فظل يسير فى شوارع سپرنجفيلد جيئة وذهاباً ، مرتدياً ثيابه السوداء العتيقة ، وعلى رأسه قبعته العالية التى كان يحفظ فيها أوراقه ، أو كان يسوق عربته فى الطرق المتوحلة التى أنشئت حديثاً بالولاية . وكان يبدو متعجباً مفكراً ، متسائلاً ، حزيناً ، أو رفيقاً مداعباً . وقد ظل قادراً على استمالة الناس واكتساب صداقتهم . ولكن كان من الصعب أن يفهم أحد كنهه . وكان يدعوه الناس الذين لا يعرفونه عن قرب بمرخم اسمه « أيب » . وبعد بلوغه سن الأربعين كانوا يدعونه « أيب العجوز » ، ولكن زوجته وشريكه فى مكتب

المحاماة كانا يدعوانه « المستر لنكولن » .

وحوالى سنة ١٨٥٤ اتجه تفكيره وتساؤله إلى مسألة الرق وحالة اتحاد الولايات . ولم يكن يضمر لملاك العبيد كراهية أو حقداً كبيراً . ولكنه قال فى خطبة ألقاها فى پيوريا Peoria « إن الاسترقاق مبعثه الأثرة الغريزية فى الإنسان ، ولكن محاربة الاسترقاق أساسها محبته للعدل » ولم يزد على هذا فى ذلك الوقت. ولكنه فى سنة ١٨٥٨ حينما كان مرشحاً لعضوية مجلس الشيوخ ضد ستيفن دوجلاس Stephen Douglas — الذى كان من أعظم الخطباء شهرة فى الأمة — ألقى الخطبة المشهورة بخطبة « البيت المنقسم على نفسه » . وقد طاف الاثنان فى ولاية إلينوى متناظرين فى موضوع الرق ، فكان لنكولن المحامى الريفى الساذج يقف فى وجه دوجلاس الملقب « بالجبار الصغير » . وقد فاز دوجلاس بالعضوية لمجلس الشيوخ ، ولكن كلمات لنكولن تغلغلت فى قلوب الناس ، وها هو ذا اقتباس منها :

« لست أسأل للزنجى سوى أمر واحد هو : إذا كنت لا تحبه فدعه وشأنه . و إذا كان الله لم يعطه إلا قليلاً فدعه يتمتع بهذا القليل . »

« إن اعتمادنا هو على حب الحرية الذى غرسه الله فى قلوبنا ، وحصانتنا هى فى المحافظة على الروح التى تقدر الحرية كتراث

شرعى لكل البشر فى كل مكان . فإذا قضيتم على هذه الروح زرعتم بذور الاستبداد حول عتبات أبوابكم . وإذا عودتم أنفسكم رؤية سلاسل الرق والعبودية أعددتم أنفسكم للتنكيل بها . »

« إنها حرب أبدية بين مبدأين ، أولهما الحق المشترك لكل الناس ، وثانيهما حق الملوك الإلهى — أو هى الروح التى تقول: كِدَّ وحصِّل الخبز وأنا آكله . ومهما يكن شكلها فإنها المبدأ الاستبدادى بعينه . »

وكانت له كلمات أخرى مليئة بالفكاهة والسخرية . وحدث أن اقترب منه شخص بمصباح ليتبين وجهه فى ليلة ظلماء فاستهل خطبة بقوله : « أيها الأصدقاء إنى إذا ما وقفت فى الظلام بحيث لا ترونى ازدادت محبتكم لى ».وسمع مرة بجنازة فخمة لرجل ذى أبهة فقال « لو كان القائد فلان قد تنبأ بفخامة الجنازة التى ستعمل له لآثر الموت من زمن طويل » . ولكن كلمات لنكولن الأخرى التى استمرت تتغلغل وتتلظى فى أفئدة الناس هى : خلق الناس أحراراً ويجب أن يظلوا أحراراً ؛ إن الاسترقاق لظلم ؛ الديمقراطية شيء حقيقى ملموس وفى وسع الناس أن يسيروا عليها فى حياتهم . وأخيراً أخذ الحزب الجمهورى الجديد على نفسه عهداً أن ينفذ بعض المبادىء الخاصة بسكان الحدود ، وأن يوزع بعض الأراضى على سكان المناطق الغربية ، وأن يحارب الرق ، وعقد

مؤتمراً رشح أبرهام لنكولن ليكون رئيس البلاد. ولما فاز بالانتخاب باع بيته ، وحزم صناديق أمتعته بنفسه ، وكتب عليها العنوان التالى « أبرهام لنكولن ، البيت الأبيض ، واشنطن » . وكان عمره حينذاك إحدى وخمسين سنة . وقد ودع أصدقاءه فى سبرنجفيلد فقال :

« أصدقائى ، لقد عشت بينكم أكثر من ربع قرن ، عشت هنا من أيام شبابى إلى أن أدركتنى الشيخوخة . وهنا ولد جميع أولادى وهنا دفن واحد منهم . واليوم أترككم لأقوم بواجب أكثر صعوبة من الواجب الذى ألقى على عاتق الجنرال واشنطن؛ ومالم يكن معى الله العظيم و يساعدنى كما ساعده فإننى لابد مخذول . فلنضرع جميعاً إلى الله رب آبائنا الذى رعاهم ألا يتخلى عنا الآن . وأترككم جميعاً فى حفظ الله . . وبهذه الكلمات القليلة أودعكم ولست أدرى كم يطول بعدى عنكم »

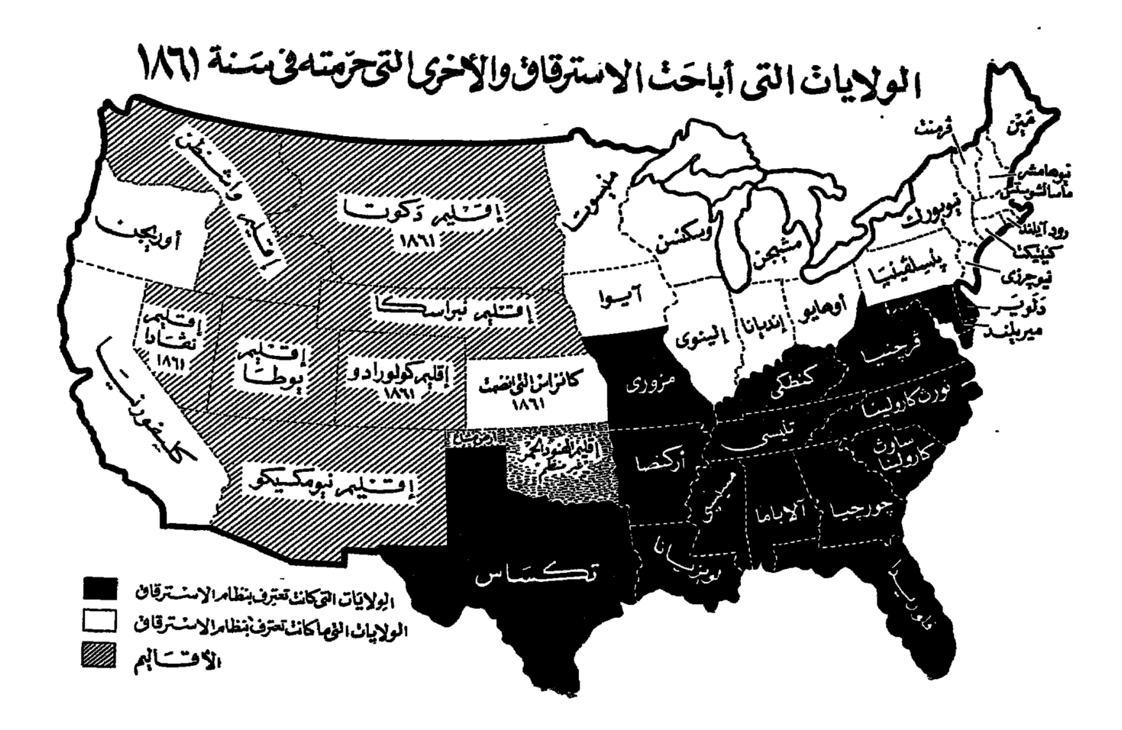
والآن ماذا سيحدث يا ترى ؟

الحرب الأهلية

قطع الجنوب على نفسه عهداً ألا يقبل رئيساً جمهورياً . فانفصلت ساوث كارولينا عن الولايات المتحدة فى اليوم العشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٦٠ وتبعتها ولايات آلاباما ، ومسيسپى ، وفلوريدا ، ولويزيانا ، وچورچيا فى الشهرين التاليين . وفى اليوم الثامن من فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع فى مدينة مُنتجومرى Montgomery بولاية آلاباما مندوبون يمثلون هذه الولايات الست المنفصلة ، وألفوا « الولايات المتحالفة الأمريكية » Confederate States of America وبعد ذلك بأسبوعين انضمت إليها ولاية تكساس . وكان تنصيب لنكولن رئيساً فى الرابع من شهر مارس ، فأعلن فى خطبته الافتتاحية موقفه بجلاء وحزم إذ قال :

« إن المسألة الخطيرة — مسألة الحرب الأهلية — فى أيديكم أنتم لا فى يدى . إن الحكومة لن تهاجمكم . وإننى أعتقد ، وفقاً لسنة الكون وللدستور ، أن اتحاد هذه الولايات هو اتحاد دائم ولايجوز قانونياً لأية ولاية بمحض اختيارها أن تنفصل عن الاتحاد »

وفى اليوم الثانى عشر من إبريل سنة ١٨٦١ أطلقت الرصاصات


الولايات التى أباحت الاسترقاق والأخرى التى حرّمته فى سنة ١٨٦١
ميْن
فرمنت
نيوهامشير
ماساشوستس
رود آيلند
كنيكتكت
نيويورك
نيوجرزى
بنسلفانيا
دلوير
ميريلند
أوهايو
إنديانا
الينوى
مشيجن
وسكنسن
منسوتا
آيوا
مزورى
كنطكى
فرجينيا
نورث كارولينا
تنيسى
ساوث كارولينا
جورجيا
الاباما
مسيسبى
لويزيانا
أركنصا
تكساس
فلوريدا
كانزاس التى انضمت ١٨٦١
إقليم الهنود الحمر
إقليم دكوتا ١٨٦١
إقليم نبراسكا
إقليم كولورادو ١٨٦١
إقليم يوطا
إقليم نفادا ١٨٦١
إقليم نيومكسيكو
إقليم واشنطن
أوريجن
كليفورنيا
الولايات التى كانت تعترف بنظام الاسترقاق
الولايات التى ما كانت تعترف بنظام الاسترقاق
الأقاليم

الأولى فى الحرب الأهلية ، وانضمت إلى التحالف أربع ولايات جنوبية أخرى هى ڤرچنيا وأرْكَنْصا وتِنيسِى ونورث كارولَينا .
وهكذا كان بدء الحرب التى استمرت أربع سنوات ، والتى قاتل فيها الفريقان بشجاعة ومرارة . فالذين ماتوا فى سبيل الجنوب اعتقدوا أنهم كانوا يعملون على توطيد الاستقلال الذى أحرزه آباؤهم من قبلهم ، والذين ماتوا فى سبيل الشمال اعتقدوا أنهم كانوا يعملون على توطيد الاتحاد الذى خلقه لهم آباؤهم . ويؤخذ من أوثق المصادر أن عدد ضحايا هذه الحرب الأهلية بلغ ٦١٠٫٠٠٠ نفسٍ ماتوا قتلاً أو من الجروح والأوبئة .

وفى وسعنا أن نذكر أسماء المعارك الكبيرة ولكنها لا تروى لنا القصة كاملة ، فالقصة الكاملة محفوظة فى قلوب الرجال والنساء ، فى قلوب رجال مثل روبرت لى Robert E. Lee القائد الجنوبى العظيم الذى اشتهر بالشهامة والرقة ، والذى كان محبوباً من جيشه وأمته . وقد حارب بمهارة تخلب الأبصار إلى أن ذاق كأس الانخذال المريرة ، فسلم تسليم الأبطال ، وبذل كل ما فى وسعه فى سبيل بلاده المقهورة ليرشدها إلى طريق العدل والسلام . وتجد القصة كاملة أيضاً فى المغامرات التى قام بها فرسان الجنوب . وفى المقاومة العنيدة التى أبداها جنود الاتحاد والتى قررت مصير المعركة فى جِتِيسبرج Gettysburg تلك المعركة الفاصلة فى هذه الحرب .

وتجد القصــة كاملة فى قلوب عدد لا يحصى من عامة الشعب فى الولايات الجنوبية والشمالية ممن لم يسجل التاريخ أسماءهم ولكنهم تألموا ، واحتملوا ، وكانوا شجعاناً ، وضحوا بكل شىء فى سبيل المبدأ الذى كانوا يؤمنون به . وربما كان الأولى أن نذكر هنا ماقاله الرئيس لنكولن فى خطبته التى ألقــاها فى جتيسبرج عنــد مقبرة لضحايا هذه المعركة :

« منذ سبع وثمانين سنة أنشأ آباؤنا فى هذه القارة أمة جديدة قامت على الحرية ، وكرست نفسها للمبدأ القائل بأن الناس جميعاً خلقوا متساوين .

« ونحن الآن مشتبكون فى حرب أهلية كبرى تمتحن هذه الأمة ليظهر ما إذا كان فى وسعها ، أو وسع أية أمة أخرى قامت على هذا الأساس وكرست نفسها له ، أن تعيش طويلاً . وها نحن أولاء قد اجتمعنا فى ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، وجئنا لنكرس جزءاً من هذا الميدان ليكون المثوى الأخير لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم لكى تحيا الأمة . وإنه لمن اللياقة والسداد أن نفعل ذلك .

« على أنه من وجه أعمّ لا يمكننا أن نكرس هذه الأرض أو نضفى عليها قدسية ، فإن الرجال الشجعان — الأحياء منهم والأموات — الذين قاتلوا هنا قد قدسوها تقديساً أعظم من أن

نزيد عليه أو ننقص منه بقوتنا الحقيرة . وسوف لا يأبه العالم كثيراً أو يذكر طويلاً ما نقوله هنا ، ولكنه لن ينسى ما فعله هؤلاء الرجال هنا . ولذلك يجدر بنا — نحن الأحياء — أن نكرس أنفسنا للعمل النبيل الذى ساهم فى سبيل تقدمه أولئك الذين حاربوا هنا . نعم يجدر بنا أن نكرس حياتنا للقيام بالواجب العظيم الذى لا يزال أمامنا . فنستمد من هؤلاء الأموات المكرمين إخلاصاً متزايداً للمبدأ الذى بذلوا فى سبيله أكثر ما يمكن من إخلاص. ونعقد العزم هنا على ألا تذهب أرواح هؤلاء الأموات سدى ، وعلى أن الحرية بفضل الله ستبعث فى هـذه الأمة بعثاً جديداً ، وألا تمحى من الأرض الحكومة الشعبية التى يقوم بها الشعب فى سبيل الشعب . »

أو لنذكر هنا ما قاله لنكولن فى خطبته الافتتاحية حينما نُصّب رئيساً للمرة الثانية ، قال :

« لننزعن الشر من نفوسنا فلا نضمره لأحد ، وليكن خيرنا للجميع . ولنكن ثابتين فى الحق كما يريه الله لنا . ولنعمل جهدنا لكى نتم العمل الذى بين أيدينا ، فنضمد جروح الأمة ، ونعنى بمن تحملوا الحرب و بأراملهم وأيتامهم . ولنسع إلى كل ما يوصلنا إلى سلام عادل دائم فى حياتنا الداخلية وفى علاقاتنا بالأمم الأخرى جميعها . »

هذه هى الروح الأمريكية ، وهـذه هى الروح التى دفعت لنكولن إلى الحرب . ولو أتيح له أن يعقد الصلح لعقده بهذه الروح نفسها . ولكن قاتلاً أطلق عليه الرصاص فى اليوم الرابع عشر من شهر إبريل سنة ١٨٦٥ بعد عشرة أيام من انتهاء الحرب . ومات فى اليوم التالى .

التعمير

والآن أصبح أمام الأمة واجب آخر ، هو واجب إعادة البناء وإعادة الإنشاء والتوفيق بين الجانبين .

كان لنكولن قد حرر أرقاء الجنوب فى اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٦٢ ، حين أصدر بياناً يعلن فيه أن جميع الأرقاء الذين فى الولايات المتحدة أو المناطق الثائرة ضد الولايات المتحدة سيصبحون منذ اليوم الأول من يناير سنة ١٨٦٣ أحراراً إلى الأبد . وفى سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٨ قرر الكونجرس التعديل الثالث عشر والتعديل الرابع عشر فى الدستور ، وقضى هذان التعديلان بأنه « يحرم فى الولايات المتحدة أو أى مكان تابع لها ، قضائياً، الاسترقاق والخدمة الإجبارية» ... «وأن جميع الأشخاص المولودين فى الولايات المتحدة أو المتجنسين بجنسيتها والخاضعين لقوانينها يعتبرون من مواطنى الولايات المتحدة والولاية المقيمين فيها ، فلا يجوز لأية ولاية أن تسن أو تنفذ أى قانون يحد من حقوق أهالى الولايات المتحدة أو امتيازاتهم ، كما لا يجوز لأية ولاية أن تحرم أحداً من الحياة أو الحرية أو الممتلكات إلا بمقتضى القانون »

وبذلك انتهى الرق فى الولايات المتحدة كما انتهى احتمال انفصال الولايات وانقسام البلاد إلى جمهوريات عديدة مختلفة . وكان تقرير هذين الأمرين نتيجة لتلك الحرب التى دامت أربع سنوات . وهكذا أصبحت الأمة التى ولدت سنة ١٧٦٧ وحدة لا تتجزأ فى سنة ١٨٦٥ .

على أنه بقى فى البلاد مسائل كثيرة . فقد حُرر العبيد فجأة وأصبحوا من مواطنى الولايات المتحدة الشرعيين دون أن يكون لهم — فى كثير من الحالات — إلمام بالتبعات التى يستلزمها هذا التحرير . وقُضى قضاء تامًا على النظام الذى سارت عليه المزارع فى الجنوب سنين طويلة ، وأدت سنوات الكفاح المديدة إلى الفقر . ومات كثير من الزعماء البيض من أهل الجنوب فى الحرب، وأقسم آخرون يمين الإخلاص للولايات المتحدة ولكنهم ظلوا يعدونها عدوة .

ومما لا شك فيه أنه لو ظل لنكولن على قيد الحياة لحُلت مسألة إعادة الإنشاء، وإرجاع الولايات الجنوبية إلى الاتحاد، بحكمة وروية أكثر . ولكن الحال ساءت على العموم إذ قام بالأمر أناس يميلون للانتقام ، فأرادوا معاقبة الجنوب بدلاً من إنشاء أمة عظيمة .

على أن من الإنصاف أن نقول هنا عن الأمريكيين إنهم لم

يقوموا بعملية تطهير أريقت فيها الدماء ، فلم يحكم على الناس بالقتل جملة ولم تقطع رؤوس .

أما المتعصبون القلائل الذين دبروا اغتيال لنكولن وغيره من زعماء الحكومة ، فقد نفذ فيهم حكم الإعدام . وأما القاتل نفسه فقد تعقبه أولو الأمر ، وأطلقوا عليه الرصاص فمات . وقد أُعدم شنقاً السجان المضطرب الذى عذب أسرى من الشمال كانوا فى معسكر بالجنوب تحت إشرافه . وأما چفرسن دَيفيس Jefferson Davis الرئيس السابق للتحالف فقد اعتقل فى السجن ردحاً من الزمن مع بعض معاونيه ثم أطلق سراحه . وهذا كل ما جرى .

ولم يقدم للمحاكمة على تهمة الخيانة أحد من عظماء القواد والسياسيين فى الجنوب .

وكان المثل الرائع الذى ضربه القائد لى Lee فى انكساره قدوة لجميع أهالى الجنوب . فقد كان فى وسعه أن يدخل ميدان التجارة ويستغل اسمه وشهرته، كما كان فى وسعه أن ينشر مذكراته فى كتاب لا بد أن تشتريه كل أسرة فى الجنوب بأى ثمن كان ، ولكنه لم يفعل ، ولو فعل لكان رجلاً آخر غير الذى عرفه الناس . أما وقد كان مؤمناً طول حياته بوجوب تربية الشعب وتثقيفه ، فقد رضى أن يصير رئيساً لجامعة صغيرة فى الجنوب

حيث قام بمهمته خير قيام مسترشداً بصبر وإخلاص عظيمين فى أداء الواجب ، وكان اسم الجامعة التى ذهب إليها « جامعة واشنطن » أما اليوم فتعرف « بجامعة واشنطن ولى » .

لقد بقى الحقد فى النفوس ، وكانت هنالك مظالم ، واستمر الجنوب مدة من الزمن تحت الحكم العسكرى ، وقاسى الشدائدَ الجنودُ الذين كانوا فى جيش الولايات المتحالفة ، وكذلك قاسى الزنوج الذين جاءتهم الحرية على حين فجأة إذ احتال عليهم أشرار من الجانبين . ولما كان حق الاشتراك فى الانتخاب قد جاءهم على غير انتظار فقد جاز لهم أن يؤلفوا حكومات فى بعض الولايات، أو أن يساعدوا على تأليفها دون أن تكون لهم خبرة سابقة فى الحكم الذاتى . فلا عجب أن كانت هذه الحكومات فاسدة وغير قادرة ومسرفة ، نعم إنهم سنُّوا كثيراً من القوانين السليمة المصلحة ، ولكن بعض الأهالى البيض من الذين لا ضمير لهم ، ولاسيما بعض الشماليين المستوطنين فى الجنوب، استعملوا المشرّعين الزنوج لمآربهم الخاصة ، ومنعوا الأكفاء المخلصين من البيض من الوصول إلى مناصب الحكومة . ولم يكن لمثل هذه الحال أن تستمر طويلاً ، ذلك لأن المسألة لم تحل حلاً مرضياً موفقاً . من أجل هذا لم تأت سنة ١٨٧٧ حتى عادت حكومات الولايات الجنوبية فأصبحت فى أيدى البيض .

على أن الزنجى كان قد حُرر ، ولم يكن ليدفع به ثانية إلى العبودية . وكان الجنوب قد هزم فى الحرب وافتقر بسبب ما أصابه من الدمار ، ولكنه أعيد للاتحاد . وأصبح الرجال الذين حاربوا فى سبيل الولايات المتحالفة نواباً وشيوخاً وحكاماً للولايات .
ولما وقعت الحرب الإسبانية الأمريكية بعد ثلاث وثلاثين سنة من انتهاء الحرب الأهلية التحق فتزهيو لى Fitzhugh Lee وغيره من جنود التحالف بخدمة جيش الولايات المتحدة فخدموا بإخلاص وكفاءة . وقد قال خطيب كبير عند بدء ذلك العهد : « كما أنه لم يسبق مثيل لذلك الخراب العظيم ، كذلك ليس ثمة شبيه لهذا الإصلاح السريع . . فإن الجندى انتقل من خندق الحرب إلى المحراث. والحقول التى كانت تسيل فيها الدماء فى شهر إبريل غدت مكسوة بالمزروعات الخضراء فى شهر يونيه » .

لقد أصيبت الأمة فى ذلك الحين بصدمة عنيفة ، ولكنها ضمدت جروحها . وبالرغم من الأخطاء والعثرات والعيوب التى رافقت عهد التعمير استطاع الشعب باتحاده أن يسير إلى الأمام قدماً .

عصر البرونز وعصر الرصاص

سار الشعب إلى الأمام ، ولكن إلى أين ؟

هذا هو السؤال الذى كانت تتداوله ألسنة الكثير من خيرة الأمريكيين والأوروبيين وأعقلهم . وإنه لسؤال لم يفتر قط فى تاريخ أمريكا كله ، ولا يزال يُذكر حتى اليوم .

إلى أين أنتم ذاهبون ؟ وماذا أنتم فاعلون ، ولماذا تفعلون ما أنتم فاعلون ؟ وماذا تتوقعون أن تبنوا فى نهاية الأمر ؟

لقد أصبح قولاً سائراً على أفواه الأمريكيين « إننا لا ندرى إلى أين نحن سائرون . ولكننا سائرون فى الطريق » . وهذا صحيح إلى حد ما ، فالأمريكيون قوم لا يشعرون بالسعادة وهم ساكنون ، وإنما يفضلون أن يفعلوا شيئاً ما حتى ولو كان هذا الشيء خطأ حين يفعلونه . إنهم يبنون شيئاً فى غير محله متكبدين فيه صعوبات عظيمة ، ثم يرون أنه لا بد من هدمه فيهدمونه ويتحملون صعوبات أخرى ، مؤثرين ذلك كله على البقاء من غير بناء . لقد ظهر بينهم فلاسفة يطيلون التأمل ولكن الأمريكيين على العموم كشعب لا يميلون إلى إطالة التأمل ، فهم يريدون أن ينجزوا على عجل ما يعملون حتى يبدأوا عملاً آخر . فإن لم يكن

لديهم ما يعملون شعروا بالضيق والنكد . وهذا ما ضايقهم حقا في الأزمة الاقتصادية الأخيرة ، حين كانت الأعمال راكدة لمدة غير قصيرة . وهم دائماً يتطلعون إلى المستقبل لعله يعوضهم عما وقعوا فيه من أخطاء في الماضي . وهذه الصفات التي أشرنا إليها توقعهم أحياناً في متاعب ، وهي نقطة الضعف فيهم كما أنها نقطة القوة . فهم قوم مرنون وغير جامدين ، على استعداد دائماً ليتعلموا ويجربوا . فلو أنهم أعطوا على حين فجأة جنة كاملة أرضها من ذهب لبدأوا من فورهم يحاولون تحسينها .

لقد حلم الأمريكيون بأشياء كثيرة في الماضي ؛ حلموا باستقلال أهل الحدود الذي نالوه بالنضال ، وبالجمهورية الحرة التي تشبه جمهورية الرومان،وبالجمهورية القائمة على مجتمع ريفي والتي تخيلها جفرسن ، وبالديمقراطية التي نمت على الحدود ونادى بها أندرو جاكسن ، وبالديمقراطية التي قال عنها لنكولن « كما أنني لا أقبل أن أكون عبداً ، كذلك لا أقبل أن أكون سيّداً. هذه هي الديمقراطية كما أفهمها » ، وبما تمثل في القائد لىLee من المحافظة على الشرف والقيام بالواجب الخاليين من الأثرة ، ومن أسمى ما وصل إليه نظام المزارع في الجنوب ، هذا النظام الذي كان يباشره أفراد الطبقة الأرستقراطية المهذبة المرحة المسرفة ، أولئك الذين كانوا يتمسكون بقواعد الجنتلمان ضمن نظام الجمهورية . وهنالك

حُلم جماعة المطهِّرين فى نيو إنجلند والدعوة إلى البساطة فى المعيشة والسمو فى التفكير . بل إن هنالك عشرات الآلاف من الأحلام التى لمعت ثم اختفت . وقد جرّبت جماعات صغيرة فى أمريكا كل أنواع نظم الحياة الممكنة كنظام الشيوعية ، والاشتراكية ، وتعدد الزوجات والعزوبة ، وتحديد النسل ، وتسليم مقاليد الحكم لنبى من أنبيائهم أو شيخ من شيوخهم ، والاهتداء بالأرواح . وعلى العموم فقد خبروا كل نظام ممكن . ولم يكن ما يعترضهم فى تجاربهم ما دامت تلك التجارب لا تعرقل سير الأمة ولا تضايق جيرانهم . فلقد كانت البلاد متسعة للجميع .

كان من الفضائل أن يعمل الإنسان ، أى أن العمل كان فضيلة . وكان جمع المال فضيلة أيضاً . وكان الناس يحترمون المثرين لأنهم أثروا . وكان من الفضيلة أن يعمل المرء عملاً كبيراً ، وأن ينشىء شيئاً كبيراً سواء أكان من نوع العمل أم من نوع المال ، بل إن كبر الحجم كان يعد فى حد ذاته فضيلة .

أما هؤلاء الذين لم يعملوا ، ولم يكوّنوا ثروة ، فقد اعتبرهم الناس كسالى ضعاف الهمة ، عالة على المجتمع ، ولم يحترموهم إلا إذا استطاعوا أن يبرهنوا أنهم كانوا قد عملوا شيئاً كبيراً أو جديداً أو ذا قيمة مالية . فإذا كان الرجل مخترعاً كإديسون Edison مثلاً احترمه الناس كثيراً من أجل المصباح الكهربائى الذى

اخترعه ، وكان فى مقدور كل إنسان أن يضيئه وأن يطفئه . أما إذا كان الرجل متبحراً فى الطبيعة مثل وِلَّرد جِبْز Willard Gibbs فلا يكاد أحد يعلم بأمره . لقد كان مقياس كل شىء هو هذا السؤال : أيؤدى هذا الشىء وظيفته ؟ وما ثمنه إذاً ؟

وهكذا تمت أعمال مادية عظيمة ، ونفذت مشروعات كبيرة تحت تأثير هذا الحافز الشديد والمنافسة القوية . فقد أنشئت السكك الحديدية عبر القارة مخترقة جبالاً وصحارى ، كما لو كان الذين أنشأوها من الجن لا من الآدميين ، وأسست مدن ونمت وازدهرت فى جهات لم يكن بها مدن من قبل ، وقطعت أشجار وغابات بأكملها وأرسلت أخشابها عائمة فى النهر لتنشر فى المعامل. واستخرج من الأرض الحديد ، والرصاص ، والذهب ، والبترول، والقصدير ، والفضة ، وكأن مليوناً من الجن قاموا باستخراجها . وكانت نيران الأفران الكبيرة تشتعل ليل نهار لصهر المعادن . وما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى صار فى وسع المعامل الأمريكية أن تنتج من الصلب مثل ما كانت تنتجه بريطانيا العظمى وألمانيا معاً . أضف إلى ذلك استمرار الاختراعات ومواصلة إدخال التحسينات على الآلات الميكانيكية كالتلغراف والتليفون والنور الكهربائى والأسلاك البرقية عبر المحيط الأطلنطى والآلات الميكانيكية الزراعية الخاصة بالحصاد والدرس والتذرية والحرث.

ولم تكن كل هذه الاختراعات أمريكية ، ولكن الأمريكى كان يسعى للحصول على كل اختراع جديد ثم يعمل على تحسينه وصنعه بكميات كبيرة ، ويغامر فى استغلاله بماله لعله يظفر من الربح بثروة عظيمة . وقد يكون الشىء المستغل قطعة أرض بمدينة أوماها Omaha أو دبابيس المشابك . وقد أثرى كثيرون من البترول والسكك الحديدية والمناجم والآلات الميكانيكية والاختراعات . نعم لقد حلت بالشعب كوارث مالية وأزمات اقتصادية ، ولكنهم كانوا يقولون بعدها : « لنبدأ العمل من جديد ولنستمر فى السير وإذا أضعنا ثروة جمعنا غيرها » . هذه كانت طريقة الأمريكيين فى حياتهم . وإذا استطاع رجل مثل أندرو كارنيجى Andrew Carnegie أن يجمع ثروة قدرها أربعمائة مليون دولار من شركة الصلب التى أنشأها قيل له « لله درك » . وهذا دليل على ما قد استطاع أن يبلغه فى أمريكا صبى فقير مجد . وقضت الظروف على الأمريكى أن يكون عنده تليفون ونور كهربائى وسيارة كى يجارى الجمهور . فإذا لم يرغب فى هذه الأشياء فعليه أن يحيد عن الطريق لأنه كان هناك كثيرون يرغبون فيها . وقد كانت الحياة مليئة بالحركة والنشاط والسرعة فى كل شىء وكأن كل إنسان يقول : إننى جد مشغول وليس عندى وقت لإضاعته معك، وأنا لا أعمل للتسلية ولكن لكسب المال .

انظر إلى دار الأوبرا الجديدة و إلى المصنع الجديد و إلى الجامعة الجديدة والسجن الجديد و إلى زرائب البهائم الجديدة ، إنها جميعها أكبر وأحسن مما كان قبلها . فإن لم تعجبنا هدمناها و بنينا غيرها أكبر منها وأحسن . إننا منهمكون فى الأعمال ، إننا سائرون على عجل . إننا ناهضون على أرجلنا وسائرون إلى الأمام ، ونحن لا ندرى إلى أين نسير ، ولكنّا سائرون فى الطريق .

نعم إن ذلك لم يكن كله صحيحاً أو هو لا ينطبق بتمامه على جميع الأمريكيين ، ولكن هذه هى الروح التى سادت فى ذلك العصر . فنى أثناء تلك السنين الطويلة كان ملايين من الناس يعيشون بأمانة واستقامة وفى سكون يخشون الله ولا يعبدون المال . وفى تلك الأثناء أيضاً ارتفعت من قدماء الأمريكيين ومحدثيهم أصوات قوية بالاحتجاج تقول « ليس هذا ما نسعى إليه حقاً ، إننا نريد ما هو أحسن وأبقى من المال والنجاح فى الأعمال » . وكان المحتجون من طبقات مختلفة ، فمن تشارلس فرانسيس آدمز Charles Francis Adams حفيد رئيس الجمهورية الثانى ، إلى جون أَلْتجِلْد John Altgeld الذى كان حاكماً على ولاية إلينوى والذى دافع عن حقوق العمال حين أضربوا ضد شركة پولمان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ودافع عن حقهم فى الإضراب ضد سلطة الحكومة المركزية نفسها ، وقد أصابه من أجل هذا

الموقف كثير من الكراهية والسباب . على آن الأمور فى أمريكا ظلت محتفظة فى تلك الأيام بمظاهر السرعة والعجلة والصخب والإنشاء وتكوين الثروات وارتفاع الأصوات القوية . ومن الأمثلة على ذلك أن مارك توين Mark Twain كان كاتباً بليغاً يحب الإنسانية ويكره الظلم والاستبداد والتمييز بين الطبقات ، ولكنه مع ذلك لم يحجم عن بذل سنين من عمره وإنفاق كل ماله فى مشروع لصنع آلات الطباعة ، ولكنه لم ينجح فى النهاية .

فلم فعل ذلك ؟ ذلك لأنه ما كان كافياً حينذاك أن يكون الإنسان كاتباً ، ولذلك لم يقنع توين بشهرة الكتابة ، هذا إلى أنه كان كباقى الأمريكيين مولعاً بالآلات الميكانيكية . ولو أنه نجح فى مشروعه لبلغ النجاح الذى أصابه عشرات المثرين الذين تلألأ نجمهم فترة ثم خبا .

واكتشفت أوربا شيئاً جديداً ، هو الأمريكى صاحب الملايين، فقد كان يذهب صاحب الملايين إلى أوربا وجيوبه محشوة بالمال ويمضى وقته فى التفرج وتدخين سيجاره الغليظ . فإذا كان له بنات زوجهن من نبلاء وأمراء معدمين ، وكان يشترى السجاد واللوحات الفنية والتماثيل والكتب النادرة والقصور الشامخة وأروع الأشياء الفنية وأسخفها. وكان يستفيد من ماله تجار التحف

الفنية والمفلسون من ذوى الألقاب والمحتالون والفنانون الحقيقيون وتجار الأثاث الغشاشون الذين كانوا يغيرون من الأثاث الحديث ليوهموه أنه قديم ذو قيمة أثرية . ولكم صوره الناس صوراً كاريكاتورية وهزأوا به وضحكوا منه ، ولكنه كان يدفع الثمن نقداً . ولم يكن الأمريكى فى أغلب الأحيان ساذجاً أو طفلاً كما كان يدل عليه مظهره . لا ، بل كان رجلاً منهمكاً فى أعماله قد اقتنى ثروة كبيرة ولم يدر كيف ينفقها . وكان يتراءى له أن لا بأس من شراء الأشياء التى تحمل طابع التمدين ما دام جيبه عامراً بالمال . وكان من الأمريكيين — فى بعض الأحيان — من يعرف قيمة ما يشتريه كما كانت الحال مع چون پيرپنت مورجن John Pierpont Morgan . على أن معظم الأغنياء لم يعرفوا ذلك فكانوا عرضة للغش والخداع . وعلى أية حال فإن ما كان يُشترى كان يجىء إلى أمريكا وكثير منه آل أمره فى النهاية إلى استمتاع الناس به واستفادتهم منه .

وهنا نشأت فكرة غريبة كانت وليدة وجهة النظر الأمريكية نحو الكد فى العمل وجمع المال . ذلك أن كثيراً من الرجال الذين كونوا ثروات طائلة لم يكتفوا بتلك الثروات ؛ لأنهم بعد حياة قضوها فى الحركة والعمل والنشاط لم يكن فى استطاعتهم أن يخلدوا إلى الهدوء والاستمتاع بالراحة . لقد كان المال يقلقهم لأنهم

كانوا يعرفون ، حتى على فرض جهلهم بكل شيء آخر ، أن المال قوة . إنهم ولدوا فقراء وكانوا من عامة الشعب فأصبح فى مقدورهم الآن أن يشتروا لبناتهم ألقاب الشرف الأوربية إذا هم أرادوا ذلك . ولم يكن فى أمريكا ألقاب شرف يشترونها لأنفسهم . فماذا يفعلون بأموالهم الوفيرة ؟

ولقد قام من بين المثرين الأمريكيين أندرو كارنيجى الذى بلغت ثروته أربعمائة مليون دولار ، فأنفق معظمها ليساعد على إنشاء دور الكتب العامة المجانية حتى يتاح للأولاد الفقراء أن يقرأوا الكتب التى كان هو نفسه يتوق إلى قراءتها حينما كان صبياً فقيراً . وكذلك قام جون روكفيلر John Rockefeller الذى قال عن ثروته « إن الله أعطاها لى » فأنشأ مؤسسة روكفيلر العظيمة التى عادت أبحاثها فى الطب والعلوم على الناس بالخير فى كل مكان . وهناك أسرة جوجنهايم Guggenheim التى أنشأت مؤسسة تنفق كل عام أكثر من مائة ألف دولار كمساعدات لتعليم طلبة الفن والكتابة والموسيقى ولإعانة العلماء الذين يقومون ببحوث ويعوزهم المال لمواصلة هذه البحوث . وهناك أيضاً ميلون Mellon وكريس Kress فقد اشتريا تحفاً فنية قيّمة هى الآن فى متحف عمومى حيث يستطيع أن يراها كل أمريكى . أما دار الكتب التى جمعت كتبها على نفقة المستر چون پيرپنت مورجن

فهى مليئة بالكتب والمخطوطات النادرة ومفتوحة للشعب . هذه كلها مظاهر أمريكية غريبة وعجيبة وجديرة بالاهتمام .

وليس من الضرورى أن نلتمس العذر لأصحاب الملايين الجشعين ، أو أن نعتذر بالنيابة عنهم ، أولئك الذين عاشوا فى تلك الفترة من التاريخ الأمريكى . لقد عاشوا ولم يهمهم أمر الشعب إلا قليلاً، ووطدوا العزم على أن يحتفظوا بمالهم وجاههم بأية طريقة شريفة كانت أو غير شريفة . لقد قال أحدهم « أفٍّ للشعب » وقال آخر — متكلفاً التقوى ، وقد أصبح الآن فى زوايا النسيان — « إن الله وضع مستقبل الأمة فى أيدى أصحاب الأعمال هؤلاء » . لقد كانوا قساة القلوب شرهين محبين للأثرة ، وإن كان القليل منهم بعيد النظر . فأردؤهم كانوا لصوصاً ، وأحسنهم كانوا ينفقون المال بالملايين ، ينفقونه بحذق وكثرة كما فعلوا فى تحصيله .

ومن هذه الضجة وذلك العجيج بنيت المصانع الأمريكية العظيمة . نعم بنيت بإسراف فى الأموال والأرواح ولكنها بنيت. بنيت بسرعة تفوق الوصف ، ونتج عن ذلك تجمّع المال والنفوذ فى أيدى رجال قلائل . على أن مستوى المعيشة فى أمريكا ارتفع إلى حد لم يعرف فى تاريخ العالم قط، ولذا عاش الأمريكى العادى من الطبقة الوسطى فى حال أحسن وأكلٍ أحسن واقتنى أشياء

أكثر ووجد فرصاً أوفر من كثير من الناس فى الأقطار الأخرى.

ولكن ماذا حل يا ترى بالمبادىء الأمريكية القديمة التى وردت فى وثيقة إعلان الاستقلال؟ هل ضاعت ومحيت أثناء ذلك الاندفاع والتزاحم على الإنشاء والبناء وجمع المال؟ كلا، فلقد قام، حتى فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر، رجال أمثال هنرى چورچ Henry George و إدوارد بلامى Edward Bellamy وسواهما من المطالبين بحقوق العمال يرفعون الصوت بالاحتجاج ضد ما عدوه خطراً على الديمقراطية. وقد قال الرئيس كليڤلند Cleveland فى سنة ١٨٨٨ « إن أصحاب الشركات الكبرى الذين ينبغى عليهم أن يخضعوا للقوانين و يكونوا خداماً للشعب أخذوا يتحولون تحولاً سريعاً إلى أسياد على الشعب » .

وفى سنة ١٨٩٦ ألقى وليم چننجز براين William Jennings Bryan خطبة حملت الحزب الديمقراطى على ترشيحه للرئاسة قال فيها « إننى جئت لأخاطبكم عن مبدأ لا يقل فى قدسيته عن الحرية، ألا وهو مبدأ الإنسانية . إن الرجل الأجير لمن رجال الأعمال كصاحب العمل نفسه، و إن صاحب الحانوت الصغير لمن رجال الأعمال كالتاجر فى نيو يورك تماماً، و إن الفلاح الذى يترك بيته فى الصباح ليكد اليوم كله لمن رجال الأعمال كالعضو فى مجلس التجارة، و إن عمال المناجم الذين يهبطون ألف قدم

فى بطن الأرض لمن رجال الأعمال كأرباب الأموال القليلين .أما وجماهير المنتجين فى هذه الأمة وفى العالم أجمع تؤيدنا فإننا نقول : إنكم لن تضعوا على جبين العمال إكليل الشوك هذا ، ولن تصلبوا الإنسانية على صليب من ذهب » .

كان براين مخلصاً ، ولكنه كثير الكلام ، وكان خطيباً أكثر منه مفكراً . وقد فاز عليه فى الرئاسة ما كنلى Mckinley المحافظ ، ومع ذلك فقد ظل براين قوة لا يستهان بها وخلدت أقواله الحسنة . وإذا كان قد وجد فى أمريكا قوم اعتقدوا أن الحصول على الثروة يبرر أى واسطة ، فقد كان فى أمريكا أيضاً ملايين كثيرة من عامة الشعب الذين كانوا فى حياتهم العادية جيراناً طيبين ، فخورين بالحرية والحقوق التى ورثوها ، ويقبلون بينهم كل من أظهر أنه أمين ، طاهر القلب ، فاضل فى علاقاته مع غيره ، وعلى استعداد لأن يمدوا يد المساعدة للمضطهدين والجائعين فى أية بقعة فى العالم . ولئن رأى الزوار الأوربيون ما أدهشهم وراعهم من ضجة المصانع الأمريكية وفساد السياسة المحلية وعبادة الدولار ، فلقد تأثروا أبلغ التأثر بما لمسوه من المودة الصادقة التى كان يبديها عامة الأمريكيين .

وظلت أمريكا اسماً مرادفاً للحرية ، وظلت للحرية قيمة . وقد تكون هذه أعظم حقيقة ولو أنها غير معروفة لكل الناس .

فمن سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩٣٠ نزح إلى الولايات المتحدة اثنان وثلاثون مليوناً من الأنفس وانسجموا فى نظام الحياة الأمريكية . لقد كان من بينهم مجريون و بوهيميون وكرواتيون وصربيون وسلوفاكيون و بولنديون و إيطاليون ورومانيون وروسيون و يونانيون ونمساويون ، وكان مجيئهم للأسباب القديمة عينها : الحرية ، والفرص ، واحتمال الحصول على شيء أحسن . وقد خاب بعضهم فعاشوا وماتوا فى منازل حقيرة وهم يلعنون اليوم الذى جاءوا فيه إلى أمريكا ، ومات بعضهم فى مصانع الصلب ودفنوا فى تربة من الرماد ، ولكن كثيرين وجدوا ما كانوا ينشدونه . ولسنا ندعى أن الجميع واتتهم فرص متساوية أو أحسن الفرص . كلا ، لقد جاء ملايين منهم كعمال بأجور زهيدة مخدوعين بالإعلانات والنشرات والوسطاء الذين أخبروهم أنهم ربما يصبحون من أصحاب الملايين يوماً ما ، فأفنوا حياتهم فى المصانع والمناجم . ولكننا نستطيع أن ندعى أن طريق الحرية كانت مفتوحة أمام كل فوج جديد . حقاً كانت الأمور صعبة مع بعضهم ، سهلة مع آخرين . ولكن أداميك Adamic و بوبين Pupin وستاينمتز Steinmetz وريس Riis ولازاروس Lazarus ونودسن Knudsen وسرمالك Cermak وساروبان Saroyan قد صارت أسماؤهم أمريكية كأسماء آدمز Adams

وبراون Brown وسِمث Smith ودوجلاس Douglas . لقد صيروا أنفسهم أمريكيين بنشاطهم ومواهبهم وقيمهم العملية . فأضافوا إلى ثروة أمريكا بالمواهب التى جاءوا بها أو جاء بها آباؤهم من بلادهم ثروة جديدة . وهم الآن منا لحماً ودماً .

أمريكا فى مصاف الدول العظمى

فى سنة ١٨٩٨ أصبحت الولايات المتحدة فى عداد الدول العظمى . ولقد كانت كذلك من الناحيتين الاقتصادية والصناعية قبل هذا التاريخ بوقت طويل . وكنتيجة لانتصاراتها فى الحرب ضد إسبانيا تبوأت مكانها السياسى بين الدول العظمى فى العالم .

لقد كان السبب الظاهر لهذه الحرب هو الرغبة فى تحرير كوبا من الحكم الإسبانى . أما السبب المباشر فهو الحادث الذى لايزال سببه غامضاً إلى اليوم ، حادث نسف البارجة الأمريكية «مَين» Maine فى ميناء هافانا ، والذى ذهب ضحيته مائتان وستون بحاراً وضابطاً أمريكياً . كان الأمريكيون — كعادتهم — يعطفون على كل شعب فى الدنيا الجديدة يحاول أن يحكم نفسه بنفسه . وقد أصيبوا بصدمة عظيمة وتملكهم الغضب عند ما حدثت مأساة البارجة « مين » . على أنه من الإنصاف أن نقول إنه كان عند بعض الأمريكيين منذ سنوات كثيرة شعور قوى ورغبة فى ضم كوبا إليهم نظراً للأهمية التى بلغتها أموالهم المستغلة وتجارتهم فيها . وقد كان من الممكن — لو استعان الأمريكيون بالصبر وحسن السياسة — أن يفض الخلاف بينهم و بين إسبانيا

دون إراقة للدماء . ولـكن مع ذلك قامت الحرب بينهما .

وكان قد حدث قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً أن نشر صحافى أمريكى مقالاً تشاءم فيه ، وتنبأ بما يمكن أن يصيب الولايات المتحدة إذا اشتبكت فى حرب مع إسبانيا . فمما تنبأ به تدمير الأسطول الأمريكى ، وضرب مدينة نيويورك بالمدافع ، وقذف المدن الأمريكية من المناطيد بالقنابل . ولـكن ما حدث حقيقة كان بعكس تنبئه .

لقد كان الظاهر أن الولايات المتحدة غير مستعدة لخوض غمار حرب كبيرة ضد دولة أوربية ، ولـكن تبين بعدئذ أن إسبانيا كانت أقل استعداداً . فالبحرية الأمريكية كانت قوية وعلى أتم الأهبة للقتال ، فى حين أن البحرية الإسبانية مهملة ، ضعيفة التسليح . ومع ذلك فقد قاتل الأسطول الإسبانى فى موقعتى مانيلا وسانتياجو بكل ما عرف عن الإسبانيين من الشجاعة فى الحروب . ولـكن الشجاعة وحدها لم تكن كافية للتغلب على تفوق الأمريكيين فى المدفعية . ونتج عن ذلك تدمير أسطولين إسبانيين ، على حين أن الأمريكيين خسروا أقل من عشرين رجلاً . وقد حارب الإسبانيون فى معارك لاس جواسياس Las Guasimas وألكانى El Caney وسان جوان San Juan بمهارة وبطولة ، ولـكن لم تمض أربعة أشهر حتى كانت قوة

إسبانيا البرية والبحرية قد تداعت ، ولم يبق لإسبانيا موضع قدم فى العالم الجديد .

ودهشت أوربا من السرعة التى أحرزت بها أمريكا هذا النصر الكامل غير المنتظر ، لأنه كان معروفاً عن الولايات المتحدة أنها أمة غنية وناجحة ، ولكن لم يُعرف أنها قوية حربيًّا . وكان الأثر الذى أحدثه هذا النصر كالأثر الذى يحدث فى ملاكمة ، يفاجىء فيها الناسَ ملاكمٌ نكرة بقهره بطلاً مشهوراً . وبذلك أصبحت أمريكا فى الأمور العالمية قوة عظيمة جديدة لا يُعرف مدى نفوذها بعد .

ولكن ماذا كانت نتائج هذا التطور فى الولايات المتحدة وسكانها ؟

كانت النتائج المادية عاجلة ؛ فوفقاً لمعاهدة الصلح التى تلت الحرب أعطت إسبانيا بورتو ريكو Puerto Rico وجزيرة جوام Guam للولايات المتحدة ، واشترت الولايات المتحدة جزر الفلبين من إسبانيا بعشرين مليوناً من الدولارات ، وأخذت بالقوة فى إلحاقها بها رغم معارضة شديدة من الشعب الفلبينى . وقد أدى انتصار الولايات المتحدة إلى أن بسطت حمايتها على كوبا ، تلك الحماية التى كان قد حددها قرار الكونجرس حينما قامت الحرب . فقد جاء فيه « أن الولايات المتحدة لا تبتغى ، وليس فى

نيتها ، أن تبسط سيادتها أو تشريعها أوْ نظامها الإدارى على هذه الجزيرة ، إلا فيما يتعلق بتوطيد السلم فيها . وتعلن عزمها أنها بمجرد ما يستتب السلم ستترك للشعب القيام بحكم الجزيرة و إدارتها » .
وفى أثناء ذلك انضمت جزر هواى Hawaii طوعاً إلى الولايات المتحدة ، وهى مجموعة من الجزر خصبة التربة ، غنية بمحصولاتها الاستوائية ، ولها جمال طبيعى فاتن .

و بعد أن كانت الولايات المتحدة تنادى دائماً برغبتها فى العزلة حتى تقوم بترتيب أمورها ، وتعمل على تحقيق أمانيها ، أصبحت فجأة أمة دات أملاك مترامية الأطراف وشعوب خاضعة لها . و بدا ذلك كأنه فاتحة لعهد إمبراطورية أمريكية ، بل لقد سماه بعض ذوى النفوذ من الأمريكيين ناقمين لا مادحين « الإمبراطورية الأمريكية » ، كما احتجوا على ضم جزر الفلبين وعدّوه مناقضاً للمثل العليا الأمريكية . ولما كان الحكم الفصل فى النتائج التى أسفرت عنها هذه الحال ، فلننظر إلى نتيجة هذه « الإمبراطورية الأمريكية » من الوجهة العملية .

عندما وضعت الحرب أوزارها فى كوبا دعا الحاكم العسكرى الجنرال وود General Wood إلى عقد مؤتمر من أهل البلاد ليضعوا دستوراً للجزيرة . وقد تم ذلك ، وأصبحت كوبا جمهورية لها رئيس خاص بها ، ونائب رئيس ، ومجلس شيوخ ، ومجلس

للدفاع مع الأمريكيين وقاتلوا جنباً لجنب . وكان اتحادهم فى الدفاع قوياً حقاً إلى حد حمل الجنرال ماك آرثر أن ينحت كلمة « فلامريكى » Filamerican للدلالة على هذا الاتحاد بين الشعبين . واليوم تقف الولايات المتحدة مرتبطة بالعهد الذى قطعته على نفسها، بأن تسترجع للفلبينيين استقلالهم الذى فقدوه بغير ذنب ارتكبوه .

أما جوام ومدواى Midway ووَيك Wake فهى قواعد بحرية للولايات المتحدة فى المحيط الهادى . وهناك جزر الهند الغربية الدانمركية التى اشترتها الولايات المتحدة من الدانيمرك سنة ١٩١٨ بخمسة وعشرين مليوناً من الدولارات . وتعرف الآن بجزر فرجين الأمريكية Virgin Islands .

أما منطقة قناة بناما Panama فهى بقعة من الأرض طولها نحو أربعين ميلاً وعرضها نحو عشرة أميال . وقد نالت الولايات المتحدة حق « استعمالها واحتلالها وضبطها » بمقتضى معاهدة عقدتها فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٣ مع جمهورية بناما الجديدة . وقد دفعت حكومة الولايات المتحدة حينئذ إلى حكومة بناما عشرة ملايين دولار . وبعد مضى تسع سنوات بدأت تدفع إيجاراً سنوياً قدره الآن ٤٣٠٠٠٠ دولار . وللمنطقة حاكم مسئول أمام وزير الحربية فى واشنطن ، وفى وقت الحرب

يكون حاكمها ضابطاً عسكرياً يعينه الرئيس .

والقناة نفسها عمل هندسى ناجح من الطراز الأول. وهى تصل بين محيطين لتسهيل التجارة أيام السلم ، ولـكنها فى وقت الحرب تصير مركزاً حيوياً فى الدفاع البحرى عن الولايات المتحدة . على أنه لا ينكر أن الولايات المتحدة استولت على منطقة القنـاة بمعاضدتها ثورة — وإن كانت غير دموية — ضد جارة ضعيفة هى جمهورية كولومبيا، وأثارت الشكوك والقلق فى أمريكا اللاتينية. على أنه بمرور الزمن، و بفضل رغبة أمريكا الحقيقية فى أن يحبهـا جيرانها ولا يخشونها، ذللت الصعاب . ففى سنة ١٩٢٢ دفعت الولايات المتحدة لجمهورية كولومبيا خمسة وعشرين مليوناً من الدولارات « لمحو كل خلاف » متعلق بثورة بناما واحتلال الولايات المتحدة منطقة القناة . وكان دفع هذا المبلغ دليلاً آخر على تحول السياسة الأمريكية من سياسة شبه الاستعمار التى اتبعتها مؤقتاً فى أوائل القرن الحالى إلى سياسة حسن الجوار وهى السياسة التى تتبعها اليوم .

هذه هى قصة « الإمبراطورية الأمريكية » الإمبراطورية التى نشأت عنها جمهورية كوبا ، وحكومة جزر الفلبين ، والرعوية الأمريكية الـكاملة لأهالى پورتو ريكو ، والرعوية الأمريكية لسكان جزر هوآى .

ولم تكن الولايات المتحدة دائماً حكيمة فى كل ما فعلته ولا هى تدعى براءتها دائماً من الأثرة . ولـكن فى مقدورها أن تدعى أنها قد أدخلت فى أملاكها الجديدة وملحقاتها المدارس والطرق الطبية الحديثة ، وأتاحت للناس أن يتدربوا على الحكم الذاتى ، وأنها لم تقل لشعب من الشعوب « يجب أن تبقوا على ما أنتم عليه ، وأن تكونوا عبيداً لنا » بل قالت « علموا أنفسكم ، تعلموا كيف تحكمون أنفسكم ، نحن لا نرغب فى أن نستمر فى إدارة شئونكم أبد الآبدين . نعم قد يكون فى وسعنا أن نفعل ذلك ولكنا لا نرتاح إليه . نحن نؤمن بفائدة القراءة والكتابة ونؤمن بفوائد المدارس والمستشفيات ، ولا نرضى بالعبودية فى ظل علَم النجوم والأشرطة . نحن نذكر كيف بدأنا ، والطريق الوعر الذى سلكناه للاستقلال . إننا لا نرغب فى أن يكون حولنا جيران خاضعون لنا ، بل نؤثر أن يكونوا أحراراً نتعاون وإياهم على حل مشاكل هذا النصف الغربى من الكرة الأرضية » .

هذه هى العقيدة الأمريكية . وهذا ما ابتغته أمريكا بصفة عامة. ولسنا ندعى – ولا فى وسعنا أن ندعى – أننا لم نرتكب أخطاء ، فليس ثمة أمة يخلو تاريخها من وصمات . ولا يخلو درع الولايات المتحدة من وصمات . ولـكنها قد تراجعت إلى الوراء بعد كل خطوة فى الطريق المؤدية إلى استعمار جيرانها وسحقهم والتحكم

فيهم . ولقد سيرنا الجنود فى أوقات مختلفة إلى هايتى Haiti ونيكاراجوا Nicaragua والجمهورية الدومينيكية Dominican Republic ، ولـكنا ما لبثنا أن استرجعناهم بعد ذلك. وفى أثناء الثورة العظيمة التى قامت فى جمهورية المـكسيك الشقيقة والأيام العصيبة المضطربة التى تلت تلك الثورة ، نزلت جنودنا البحرية فى ميناء ڤيرا كروز Veracruz وكذلك أرسلنا حملة عسكرية إلى الأراضى المـكسيكية لمقاتلة ڤيلا Villa الذى شن غارات على الحدود الأمريكية . ولـكن ماذا كانت نتيجة ذلك ؟ عادت الجنود البحرية والحملة العسكرية إلى أوطانها دون أن تضم أرضاً ، أو تخضع أمة ، ولم تـكن فى حرب مع المـكسيك . ولم يقم بين الأمريكيين من يصبح مطالباً بحيز للحياة فى المـكسيك أو بإكراه أمريكا الوسطى على الدخول فى نظام يشبه النظام الإمبراطورى الذى تطبقه اليابان بالقوة فى آسيا الشرقية . وكانت سياسة الضغط الاقتصادى وسياسة التهديد قد ماتت ميتة طبيعية وحلت محلها سياسة جديدة هى سياسة حسن الجوار — الجوار الذى يقضى بأن يكون الجار جاراً لا سيداً . و إننا لمصممون على أن تستمر السياسة على هذه الحال . وتقف إلى جانبنا فى هذه الحرب جمهورية المـكسيك وجمهوريات أمريكا الوسطى والجمهوريات العظيمة القوية فى أمريكا الجنوبية وكلٌ تقف معنا بمحض إرادتها .

هذا ما سجله التاريخ لأمريكا . ونحن لا ندعى الكمال لما سجل ، ولكنا نسألكم أن تقارنوه بما تقوم به دول المحور من أعمال تجاه جيرانها الأقربين . إن سائحينا ليسافرون وليس فى جيوبهم أغلال ليكبلوا بها أرواح الأمم الأخرى . إن فكرة سيادة جنس خاص أو دولة بذاتها لم تستهو قط الأمة الأمريكية . ولا يستطيع شخص يؤمن بهذه الفكرة أن يكون قائداً أو زعيماً فى هذه الأمة المكونة من أفراد يؤمنون بحق كل منهم فى أن يكون حر الشخصية .

أمريكا التي نعرفها

منذ سنة ١٩٠٠ حتى اليوم حدث تحول وتغيير فى الحياة الأمريكية صحبهما شىء من الكفاح . ومن مظاهر هذا الكفاح أن نادى الرئيس ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt بما سماه «الإنصاف» Square Deal وأن دعا الرئيس ودرو ولسن Woodrow Wilson إلى «الحرية الجديدة» New Freedom وما قال به الرئيس فرانكلن روزفلت من « العهد الجديد » New Deal وكل هذه المظاهر كونت حلقات من سلسلة الكفاح . وقد كان هذا الكفاح إلى حد ما نوعاً من الكفاح الذى يوجد فى كل أمة حرة ، يعنى الكفاح الذى يقوم بين المحافظين والأحرار، بين القائلين بوجوب بقاء الأمور على ما هى عليه ومن يرغبون فى الإصلاح والتغيير ، بين من يعتقد أن بيد الشعب قوة كافية ومن يعتقد بوجوب زيادة هذه القوة . وكذلك ظل كفاح أمة ما زالت تكد وتسعى وما زالت تتعلم وما زالت تبحث لا عما هو خير لطبقة واحدة من الشعب ولكن للشعب جميعه .

على أن الأهميـة ليست فى الكفاح الذى ظهر بين قانون وقانون أو بين رئيس ورئيس ، بل إنهـا فى الكفاح نفسه .

فأنت تستطيع أن تقول عن الأمريكيين ما تشاء إلا شيئاً واحداً هو أنهم قوم مستكينون .

ولربما خيل لمن كان يراقب ارتفاع المد أثناء عصر الرأسمالية القاسى ، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، أن مد الرأسمالية سيستمر فى ارتفاعه وطوفانه دون مقاومة ما حتى يغمر كل شىء ، وحتى تندمج جميع الشركات على اختلاف أنواعها فى هدوء وتصبح شركة واحدة عظمى ، و يغدو صاحبها ذو الملايين صاحب الأمر والنهى فى البلاد . ولكن ذلك لم يحدث ؛ فلم تكد تتوطد قوة الفوج الجديد من أصحاب الملايين والشركات الكبيرة حتى أخذ الناس يتساءلون : « لماذا يضطر الأحداث للعمل فى المصانع؟ ولماذا لا يستطيع العمال أن ينظموا أنفسهم و يتكاتفوا تكاتف أصحاب الأعمال؟ وهل جمع الثروة فضيلة كما ظننا ذلك أو هو مجرد تهافت على جمع المال؟ ولماذا لا تدار دفة الحكم فى المدن والولايات بشكل أحسن ؟ وماذا حل بالفكرة الأمريكية القديمة ، الفكرة التى تنادى بتوزيع الثروة والإقلال من الفقر ؟ وما قولكم فى هذه الآلات الصناعية العظيمة التى لا نزال ننشئها ، من الذى يديرها ؟ ومن يحصل على الأرباح ؟ وهل تقسم الأرباح على أساس عادل ؟ لقد نُعت أولئك الذين سألوا هذه الأسئلة بأنهم مصلحون أو متهوسون أو متحمسون ، أو مثاليون خياليون . ولكنهم ظلوا

يتساءلون . وقد أدت أسئلتهم هذه إلى كثير من التغييرات والتجارب والإصلاح .

وها هي ذي بعض الحقائق عن الولايات المتحدة : لم تقم صناعاتها الكثيرة على أساس صنع بضعة أشياء غالية الثمن لتباع للأغنياء القليلين ، بل على أساس صنع أشياء كثيرة لعدد كبير من الناس ، لتباع بأثمان يستطيع دفعها الكثيرون . ومن خير الأمثلة على ذلك سيارة فورد ، والساعة الشعبية التي ثمنها دولار واحد ، وعلبة الحساء التي ثمنها عشرة سنتات ، والجرائد الرخيصة واستعمال جهاز الراديو من غير ضريبة ، والملابس الجاهزة والصور المتحركه التي بلغت تكاليفها ملايين من الدولارات ، والتي يتاح لك أن تشاهدها بدفع ثمن معقول . وتصنع هذه المنتجات جميعها وملايين غيرها بكثير من المهارة والذكاء . وهكذا يجب أن تصنع إذ لو لم تصنع كذلك ، بأن كانت غير متينة ولا تؤدي الغرض منها لاحتج الأمريكيون عليها . فهم لا يرضون بسيارات أو ساعات لا تسير ، ولا بتليفونات أو حنفيات كثيرة التعطل . وقد درجوا على أن تجمع الأشياء العادية التي يشترونها بين السهولة ، ودقة الصنعة ، ورخص الثمن . إنهم لا يحصلون دائماً على أحسن الأشياء فهناك منتجات أوربية أكثر احتمالاً وجمالاً وأبقى من مثيلاتها من المنتجات الأمريكية . ولما كان

الإنتاج فى أمريكا والبيع بكميات هائلة كان فى استطاعة الأسرة الأمريكية متوسطة الحال أن تشترى ما يجعل حياتها أكثر راحة وصحة وسروراً . وتقوم التجارة الأمريكية على البيع للكثيرين من المشترين ، وبسبب بيعها للكثيرين تُدِرّ على أصحابها الربح الوفير. على أنه ترتب على هذا الربح الوفير ارتفاع مستوى المعيشة. ولا يزال مستمراً فى الارتفاع ، كما أن الأمريكيين لا يزالون يؤمنون بمستقبل أكثر قبولاً للتحسن من الحاضر .

والمجتمع الأمريكى لم يتجمد بعد فى تقاليده ونظمه السياسية والتجارية بل هو مجتمع مرن سياسياً وتجارياً . فرئيس الولايات المتحدة السابق — فرنكلين روزفلت — منحدر من أسرة أمريكية قديمة فى سعة من العيش منذ عهد بعيد، وقد اشتهرت بما أدته من خدمات للأمة . ووزير الخارجية السابق — كوردل هل Cordell Hull — يعد من أبرز الأمريكيين . وقد ولد فى أسرة فقيرة بمكان يبعد عشرة أميال عن السكة الحديدية . ووزير التجارة السابق — هارى هوبكنز Harry Hopkins — الذى كان مستشار الرئيس روزفلت الخاص، ابن سروجى من ولاية آيوا . وليفريت صالتنستول Leverett Saltonstall عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ماساتشوستس يرجع نسبه إلى السير ريتشرد صالتنستول النبيل الإنجليزى الذى جاء مهاجراً

إلى مستعمرة ماساتشوستس باى فى سنة ١٦٣٠ . ومحافظ مدينة نيو يورك الحالى — فيوريلو لا جوارديا — Fiorello LaGuardia ابن إيطالى كان رئيساً لفرقة موسيقية . وقد ولد الجنرال وليم نودسن William Knudsen أحد زعماء الصناعة الناجحين فى الدانيمرك . وأما فيلكس فرانكفورتر Felix Frankfurter القاضى المحترم بالمحكمة العليا فقد ولد بالنمسا من أبوين يهوديين . ونحن الأمريكيين نحب هذه الأمور . ونفخر بها لأننا نرغب أن نرى الولايات المتحدة بلاداً يمكن أن يقف فيها كل فرد على قدميه بمجهوده الشخصى لا بما خلفه له أبوه من جاه . نريدها أن تكون مكاناً تتجلى فيه مواهب الإنسان بكل قواه . وقد كانت دائماً كذلك .

والأمريكيون يؤمنون بالتعليم؛ يؤمنون بأن يكون التعليم بالمجان وفى متناول كل من يسعى إليه ، ويؤمنون بالتعليم الإجبارى إلى سن معينة . ويقترن اسم أمريكا بالمدارس ومعاهد التعليم أكثر من اقترانه بالسفن الحربية والدبابات . وفى الولايات المتحدة أكثر من ١٦٠٠ جامعة وكلية بلغ مجموع طلبتها ١٫٣٥١٫٩٠٥ طلاب فى سنة ١٩٣٨ . وكان بجامعة مشيجن ما يزيد على ١٣٫٠٠٠ طالب وطالبة ، وفى جامعة إلينوى ما يزيد على ١٥٫٠٠٠. وليس لجميع هذه الجامعات والكليات المستوى العالى أو التقاليد

العريقة التي للجامعات فى أوربا . كلا ، فالمدارس الألمانية المعروفة بالجمناز يوم فى العهد السابق لهتلر ومدارس الليسيه الفرنسية ومدارس البلاد الاسكندناوية قد وصلت فى طرقها ودقتها وتعمقها إلى درجة لم يصل إليها كثير من المدارس الثانوية الأمريكية . على أن بين الذين تخرجوا من الكليات والجامعات الأمريكية منذ سنة ١٩٣٠ من فازوا بجائزة نوبل فى علم الطبيعة والكيمياء والطب وعلم الأحياء والأدب . وإنك لتجد أمريكيين يدرسون هومر فى كليفورنيا ، وراسين فى كنزاس وجوته فى بنسلفينيا ، لأن المثل الأعلى الأمريكى هو أن تكون الأمة متعلمة وأن تكون أبواب التعليم العالى مفتوحة أمام كل من يريد أن يستفيد منه. إنها لم تحقق بعد هذا المثل الأعلى ولكنها سائرة نحو تحقيقه .

وليس فى الولايات المتحدة حزب عسكرى له نفوذ سياسى فى شئون الأمة ، ولا يتدخل ضباط الجيش أو البحرية فى السياسة بل هم قد انصرفوا عنها منذ البدء ، ولم يحدث فى تاريخ الولايات المتحدة أن حاول قائد فى الجيش أو أميرال قلب الحكومة بالقوة. والطلبة الذين يلتحقون بوست پوينت West Point الكلية الحربية أو بأناپولس Annapolis الكلية البحرية يختارون من جميع الولايات بعد أن يكونوا قد نجحوا فى امتحان مسابقة صعب . وليس النسب أو المال وسيلة تمكن الطالب من الالتحاق بهذين

المعهدين ، كما لا يستطيع النفوذ السياسى أن يبقى طالباً فيها ، إذا هو لم ينجح فى دراسته . و إن جيش الولايات المتحدة ملك للأمة كلها ، كما أنه يمثل الأمة كلها . وقائد الجيش الأعلى من المدنيين هو رئيس الولايات المتحدة .

هذه بعض الحقائق الهامة عن الولايات المتحدة.ونحن لا ندعى أننا حللنا كل مشكلة واجهتنا ، بل بالعكس نعلم علم اليقين أننا لم نفعل ذلك . وقد مر عهد طويل لم نبلغ فيه ما بلغته بريطانيا و بعض الدول الأوربية الأخرى من حيث تنظيم شئون العمال ، وسن قوانين لهم ، ووضع الأنظمة واللوائح للعمل والصناعة ، وتأمين سلامة العمال فى المصانع وغيرها . وقد حاولنا فى خلال الثلاثين سنة الماضية أن نعوض ما نقصنا فى هذه الناحية ، ونحن سائرون بالتدريج إلى تحقيق هذه الغاية . وليس قانون التأمين الاجتماعى Social Security Act الذى عندنا كاملاً ، ولكنه نافذ على أية حال . وفى السنوات العشر الأخيرة نمت جمعيات العمال عندنا . وهى و إن كانت لا تزال فى نمو وتطور إلا أنها قد أصبحت ثابتة الأساس . وهناك تفاوت فى توزيع الثروات . فليس كل أمريكى بنائلٍ أجراً حسناً ، أو مسكناً صالحاً ، أو غذاءً جيداً ، ولكن لنا رجاء فى مستقبل أحسن من ماضينا ، مستقبل يعود بالخير على سواد الشعب الذين هم عمادنا وقوتنا ،

وعلى مقدار استعدادهم للحكم الذاتى والتعاون والتقدم ، يرتكز نظام الأمة جمعاء . ونحن قوم نحتفظ بما لنا من حقوق .

ولم نصبح كما خشى البعض أمة يحكمها المال ، أو واقفة حياتها على تحصيل الثروة . ولم نصبح كما خشى البعض شعباً فوضوياً خارجاً على القانون . وسوف لا نصير كذلك غداً . فنحن قوم لا نصبر على الظلم أو الإساءة . ولم يحدث فى تاريخنا سوء استعمال للقوة أو النفوذ إلا وانقطع وانكشف واحتج عليه وهاجمه أمريكيون من أحرار القول . ولقد سار تقدمنا منذ أوائل هذا القرن فى طريق متعرج ، يرتقى أحياناً ، وينخفض أخرى فلم يتجه صاعداً على الدوام . ولكنه تقدم لاشك فيه . ولم تبدأ الثروات العظيمة تتجمع فى أيد قليلة وتهدد حريات الرجل العادى حتى وقف تيودور روزفلت منددا « بالأثرياء الآثمين » ودعا إلى المحافظة على حقوق الشعب ، وإلى وضع نظام حكومى يكبح شر هذه الشركات الجامحة . وقد قال ودرو ولسن فى الخطبة التى افتتح بها عهد رئاسته الأولى : « إننا لا نزال نفتخر بمجهودنا وإنتاجنا الصناعى ولكننا إلى الآن لم نقف مدة كافية لنفكر ونتأمل فيما دفعه الإنسان ثمناً لهذا الإنتاج . وكثيراً ما اتخذ بعض الناس الحكومة العظيمة التى نحبها وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية ومصالحهم الذاتية دون أن يعيروا الشعب التفاتاً . ولن تكون فى

البلاد مساواة أو فرص للنجاح إذا كنا لا نحافظ على حياة الرجال والنساء والأطفال وحيويتهم من نتـائج التطورات الصناعية والاجتماعية التى ليس فى مقدورهم وحدهم أن يغيروها. أو يكيفوها أو يتغلبوا عليها . و إننى لأدعو كل رجل أمين مخلص أن يقف بجانبى » . وقد أشار فرانكلن روزفلت فى حملته الانتخابية الأولى للرئاسة إلى « الرجل المنسى ، الرجل الذى قام عليه بناء الهرم الاقتصادى » ودعا فى حزم وقوة إلى القيام بمساعدة هذا الرجل و إعانته .

ولم تكن هذه مجرد كلمات وكفى ، بل تبعتها أعمال وقوانين وشرائع لمساعدة الأمريكيين وتحسين حالهم . إن الفكرة المثلى القائلة بالبحث عن طريق للحياة يجمع بين العدل والمساواة ، ليست فكرة جديدة أو وقتية فى أمريكا . إنها ترجع إلى أقوى اعتقاداتنا وأقدم تقاليدنا ، و إنها لجزء من لحمنا ودمنا . نعم سنرتكب بعض الأخطاء السخيفة ، ونحن سائرون فى الطريق ، كما فعلنا ذلك فى المـاضى ، ولكن إذا رأينا خطأ فسنصلحه ، لأن لنا قوة على إصلاح أنفسنا قد اكتسبناها بتدريبنا الطويل فى الحكم الذاتى وحرية القول وحرية الدين . ولا بد لنـا من استعمال هذه القوة عاجلاً أو آجلاً ، وسوف تكون الكلمة العليا دائماً للشعب .

أمريكا والعالم

ذكرنا فى الباب السابق كيف صارت الولايات المتحدة لأول مرة إحدى دول العالم العظمى ، وكيف قامت بمغامراتها التجريبية فيما يمكن أن يطلق عليه اسم « الإمبراطورية » . وقد بينا مبلغ هذه « الإمبراطورية » وما انتهت إليه . وقد اتضح أنها لم تكن « إمبراطورية » بالمعنى المألوف ، إمبراطورية أمريكية دكتاتورية ترمي إلى التوسع وإخضاع الأمم الأخرى لها ، بل كانت فى الواقع نظاماً دخلت فيه دويلات أخرى ، فمنها ما كانت تحكم نفسها بنفسها ، ومنها ما هى سائرة فى طريقها نحو الحكم الذاتى ، ومنها ما ستصير ولايات كاملة الحقوق فى عداد الولايات المتحدة . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن الولايات المتحدة لم تستول على أرض جديدة فى أمريكا الشمالية منذ أن اشترت ألسكا Alaska من روسيا سنة ١٨٦٧ . وتعد ألسكا اليوم تابعة للولايات المتحدة ، ولكنها سوف تغدو ولاية كالولايات الأخرى . ولننظر الآن ما كان من أمر الولايات المتحدة وعلاقتها بباقى أمم العالم ، وما طرأ على مركزها من التغيير .

ففى الفترة التى بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ما كان أحد

من الأمريكيين يحلم بأن الولايات المتحدة ستشتبك فى حرب بدأت فى أوربا . إذ كان الأمريكيون قد أشربوا فى قلوبهم الفكرة والنصيحة القديمتين القائلتين بالابتعاد عن جميع المنازعات الأوربية . ولم يقتصر الأمر على الابتعاد عن مخاصمة أية دولة فى أوربا أو آسيا ، بل إن فكرة الحرب نفسها كانت مما لا يقره العقل . فقد كان الأمريكيون متيقظين إلى أن العالم قد تقلص ، وأن المحيط الذى كانت تعبره السفن الشراعية فى مدة تتراوح بين ستة أسابيع وثلاثة أشهر أصبح ممكناً أن تعبره باخرة سريعة فى أسبوع ، وأن أسلاك البرق البحرية والبرية قد صارت تربط أنحاء العالم المترامية ربطاً متيناً . وكانوا على علم بأن وباء يظهر فى آسيا قد يصل إلى الشواطىء الأمريكية ويذهب بأرواح الكثيرين . وقد أدركوا أن تجارتهم كانت منتشرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأن مجاعة تحدث فى آسيا أو ذعراً فى أوربا لا بد وأن يظهر أثره فى أمريكا ، كما أدركوا أن صِلاتهم اليومية بجميع أجزاء العالم قد زادت إلى حد لم يحلم به آباؤهم . وبالرغم من إدراكهم كل هذا ظلوا فى الغالب يؤثرون أن يوجهوا اهتمامهم إلى شئون بلادهم فى الداخل على أن يوجهوه إلى الخارج فيما وراء البحار . وكانوا ينظرون إلى حوادث أوربا وآسيا نظره المتفرج ، ولم يروا فيها ما يهمهم شخصياً . وقد يقرأ المزارع فى كنزاس مثلاً

أو الكاتب التجارى فى مدينة نيويورك شيئاً عن حفلات التتويج والزلزال والثورات والاكتشافات التى تحدث وراء البحار ، ولكنه كان يعتبرها خارجة عن محيط حياته . وقد يستمر المهاجر الحديث إلى أمريكا فى اهتمامه بالشئون السياسية فى وطنه الأصلى ، ولكنه كان يبنى حياة جديدة ويتعلم طرقاً جديدة وكان هذان الأمران أهم شىء عنده .

وما كان الأمريكى ليجهل أن فى العالم نظماً أخرى للحكم غير نظم بلاده ، كالملكية المطلقة ، والملكية المقيدة ، والجمهورية ، والدكتاتورية . لقد كانت هذه مدوّنة فى كتب التاريخ التى قرأها فى المدرسة ، أو كانت مما سمعه فى بعض الأحايين من زميل أمريكى ساح فى الخارج ، أو كانت مما وقف عليه بنفسه فى أثناء سياحاته . ولكن وجود هذه النظم الأخرى لم يهم الأمريكى العادى فى قليل أو كثير . وقد يستقبل الأمريكى ويرحب باللاجئين إلى بلاده فراراً من النظم السياسية الظالمة ، وقد يندد بأعمال روسيا القيصرية ، ويعقد الاجتماعات للاحتجاج على مذابح الأفواج البشرية أو يعطف على الأمم الصغيرة التى ظلمتها الأمم القوية ، بل قد يتطوع — كما حدث كثيراً — بالمال والطعام والأدوية وغيرها من أنواع المعونة للجياع ومن لا مأوى لهم ممن يبعدون عنه ثلاثة آلاف ميل . هذا ، وأما من الناحية السياسية

فكان لا يمانع فى أن تسير كل أمة فى الطريق الذى رسمته لنفسها ما دامت لا تعترضه فى الطريق الذى يسلكه . وكان يرجو أن يجىء الوقت الذى تأخذ فيه الأمم بنظام الحكم الديمقراطى الشبيه بنظامه ، ويعتقد أن هذا الأخذ يؤدى إلى تكوين عالم أحسن وأكثر تسامحاً، ولكنه لم يعمل قط على إكراه الشعوب الأخرى لتعتنق مبادئه الديمقراطية .

هذه صورة عادلة تمثل موقف الأمريكى العادى فى سنة ١٩١٤ . وقد تبدو للقارىء وجهة نظر ضيقة وساذجة، ولكنها كانت وجهة النظر الحقيقية للأمريكى . على أن الأمور أخذت تتغير تغيراً سريعاً .

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى فى أوربا كان جل الأمريكيين — لا كلهم — ينظرون إليها باعتبارها أمراً يقرأون عنه فى الصحف . ولم يدر فى خلد أحد أنها سوف تؤثر فيهم . وكانوا يميلون لهذا الجانب أو ذاك كما يفعل النظارة وهم يشاهدون مباراة بين فريقين ، مباراة دموية فظيعة ، ولكنها بين فريقين أجنبيين . وقد مال كثير من الأمريكيين نحو جانب الحلفاء نظراً للرباط الوثيق بين أمريكا وإنجلترا ، رباط اللغة والثقافة والكتب والمبادىء المشتركة . وكانت صداقة أمريكا التاريخية واحترامها لفرنسا ذات شأن . على أنه كان بين

الأمريكيين أيضاً ملايين جاء أسلافهم من ألمانيا ، ألمانيا القديمة المشهورة بموسيقاها العظيمة وعلمها الغزير . وربما لم يكن بين هؤلاء كثيرون أحبوا القيصر ، وربما كان أسلافهم قد جاءوا إلى أمريكا طلباً للحرية التي لم يجدوها في ألمانيا ، ولكن الروابط القديمة كانت لا تزال قوية .

وبالتدريج ، ومن غير مفر ، زادت الحال سوءاً ، إذ أن الغواصات الألمانية أغرقت بعض السفن الأمريكية ، وذهب ضحية ذلك عدد من الأمريكيين قتلى وغرقى . وقد احتجت حينذاك حكومة الولايات المتحدة بقوة على بريطانيا وألمانيا معترضة على أساليبهما الحربية التي أضرت بالمصالح الأمريكية . ولكن كانت هناك حقيقة واحدة هامة ، وهي أن الأساليب الحربية التي اتخذتها بريطانيا العظمى لم تقتل أحداً من الأمريكيين ، في حين أن أساليب الألمان الحربية أودت بحياة مائتين وتسعة من الأمريكان في عرض البحار .

ومع ذلك كله ظلت أمريكا راغبة في الابتعاد عن الحرب . وقد بذل الرئيس ولسن كل ما في وسعه لتحقيق هذه الرغبة . فقد دعا الدول المحاربة إلى الصلح وعرض أن يكون وسيطاً بينها بأية وسيلة ممكنة ، ولكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح . وصممت الحكومة الألمانية الإمبراطورية على الاستمرار في هجوم الغواصات

دون تمييز أو تحديد . ونحن نعلم الآن،اعتماداً على الكتب التى طبعت من ذلك العهد،أن الحكومة الألمانية فعلت ذلك عمداً وأنها لم تكترث أن يؤدى الأمر إلى حرب مع الولايات المتحدة ؛ إذ كانت تأمل أن تتمكن من سحق أعدائها قبل أن تجىء الولايات المتحدة بكل قواها لمساعدتهم .

بذلك كان التحدى مباشراً والخطر مهدداً . و إنها لحقيقة لا ريب فيها — وستظل كذلك — أن الولايات المتحدة لا تطيق أن ترى دولة قوية معادية تهـدد سلامتها القومية بالسيطرة على المحيط الأطلنطى . غير أن هذه الحقيقة لم تكن السبب الذى جعل الأمريكيين يغيرون موقفهم من الحرب فى سنة ١٩١٧ ، بل إن السبب الحقيقى هو أنهم رأوا شرف بلادهم قد أهين ، والنار تطلق على علمهم من غير جريرة ، ورأوا حرياتهم معرضة للخطر . وقد جاء فى خطاب ألقاه الرئيس ولسن بالكونجرس فى اليوم الثانى من شهر إبريل سنة ١٩١٧ ما يأتى :

« إننى أشعر شعوراً عميقاً بخطورة الخطوة التى أنا متخذها ، بل بما سيصحب هذه الخطوة من الحزن والأسى وما يلازمها من التبعات العظيمة ، ولكننى عملاً بواجباتى الدستورية التى لا أتردد فى القيام بها أشير على الكونجرس أن يعلن أن الخطة الأخيرة التى سارت عليها الحكومة الألمانية الإمبراطورية عمل لا يقل

عن إشهار الحرب على حكومة الولايات المتحدة وشعبها . ولكن الحق أثمن من السلام ، وإننا سنقاتل فى سبيل ما قربناه من قلوبنا ، سنقاتل فى سبيل الديمقراطية ، نعم فى سبيل الذين يخضعون للقانون ، سنقاتل لكى يكون لهم الحق فى أن تسمع كلمتهم فى إدارة شئون بلادهم ، سنقاتل من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرياتها ، ولكى يتاح للشعوب الحرة أن تتحد وتتعاون ، فيسود الحقّ العالم سيادة تجلب السلام والطمأنينة لجميع الأمم ، وتجعل العالم بأسره فى النهاية حراً . »

هذا ما حاربت من أجله حكومة الولايات المتحدة وشعبها ، وقد سجل التاريخ ما حدث من ذلك . إننا لم نكن على استعداد للحرب ، بل لم يكن استعدادنا نصف ما كان عليه عند بدء الحرب الحالية ، ولكننا مع هذا أرسلنا أكثر من مليونى جندى إلى فرنسا ، وجندت موارد أمريكا فى الصناعة والرجال . وكما قال القائد الألمانى لودندورف Ludendorff : « هكذا أصبحت أمريكا العامل الفاصل فى الحرب » . وانتهت الحرب بالهزيمة الكاملة لألمانيا وحلفائها .

لقد تحملنا نصيبنا من الخسائر الأليمة ، خسائر القتلى والجرحى. لقد ضحينا بالثمينين الأرواح والأموال ، ولم نحصل على أرض ما . وإن كانت هناك أرض أخذناها فى أوربا فهى تلك الحفر التى

يبلغ عمق الواحدة منها ست أقدام يرقد فيها جنودنا القتلى ، على أن هذه الأرض ليست ملكنا . وما أنفقناه من أموال لم نتوقع أن يرد إلينا كاملاً . ولكننا قاتلنا من أجل ما اعتقدناه حقاً ، وأنفقنا ما أنفقنا من مال وبذلنا ما بذلنا من جهد عن طيب خاطر .

وكان الرئيس ودرو ولسن قد حلم حلماً جميلاً يبشر بمستقبل عظيم . لقد حلم بجمعية للأمم و بمحكمة عالمية ، وبنظام للتعاون بين العالم يمكن — كما قال فى خطابه للكونجرس — « أن يجلب السلام والطمأنينة لجميع الأمم و يجعل العالم بأسره فى النهاية حراً » . وقد وضع أربع عشرة نقطة بها يمكن أن يسود السلام العالم . وها هى ذى :

١ — أن تعقد معاهدات صريحة للسلم بعد مناقشات علنية،على ألا يتلو هذه المعاهدات أبداً شيء من الاتفاقات الدولية السرية ، وتجرى السياسة دائماً بصراحة و بصفة علنية .

٢ — أن تكون هناك حرية مطلقة للملاحة فى البحار خارج المياه الإقليمية ، فى السلم والحرب على السواء ، إلا فى الأحوال التى تغلق فيها البحار كلها أو جزء منها باتفاق دولى لتنفيذ معاهدات دولية .

٣ — إزالة الحواجز الاقتصادية على قدر المستطاع ، وقيام المساواة

فى التجارة بين جميع الأمم الموافقة على الصلح والمتعاونة على المحافظة عليه .

٤ — تبادل ضمانات كافية بين الأمم لتخفيض التسليح القومى إلى أقل درجة تضمن سلامة الأمن الداخلى .

٥ — أن تسوى المسائل الاستعمارية بالتسامح من غير محاباة أو إكراه تسوية تقوم على مراعاة دقيقة للمبدأ القائل بوضع مصالح السكان الذين يعنيهم الأمر على قدم المساواة، فيما يتعلق بالسيادة، مع المطالب العادلة التى تقدمها الحكومة المطالبة بحق التملك .

٦ — الجلاء عن جميع الأراضى الروسية ، وحل جميع المسائل المتعلقة بروسيا بطريقة تضمن لها خير المساعدات من الأمم الأخرى . فيتاح لها - من غير عائق أو حرج — أن تقرر بنفسها حرة تطورها السياسى وسياستها القومية تقريراً يضمن لها الترحيب الصادق بها عند ما تدخل — بإرادتها المطلقة — فى جمعية الأمم الحرة . وأن تلقى عدا الترحيب ، جميع المساعدات التى قد تحتاج إليها ، أو قد ترغب هى نفسها فيها . وسيكون نوع المعاملة الذى تتلقاه روسيا من شقيقاتها الدول فى الأشهر المقبلة المحل الذى يظهر حسن نيتهن نحوها وفهمهن لاحتياجاتها بغض

النظر عن مصالحهن وعطفهن المشرب بتفهم للأمور من غير أنانية .

٧ — أن يوافق العالم أجمع على وجوب الجلاء عن البلجيك ، وأن تعاد البلاد إلى أهلها من غير محاولة للحد من السيادة القومية التي تتمتع بها كسائر الأمم الحرة . وهذا هو العمل الوحيد — دون غيره — الذي يصلح لأن يعيد إلى الأمم ثقتها بالقوانين التي وضعتها هي نفسها وقررتها لتنظيم العلاقات التي تربط أمة بأخرى . وما لم يتم هذا العمل الذي يضمد جروح البلجيك فإن صرح القوانين الدولية كله سيظل مختلاً إلى الأبد .

٨ — يجب أن تحرر جميع الأراضي الفرنسية ، وأن تعمر الأجزاء التي أغير عليها ، وأن يرفع الظلم الذي ألحقته بروسيا بفرنسا في سنة ١٨٧١ فيما يتعلق بالألزاس واللورين . هذا الظلم الذي أقلق سلام العالم نحواً من خمسين سنة ؛ فيرجع السلام إلى التوطد لخير الجميع .

٩ — يجب أن تعدل الحدود الإيطالية على أسس قومية واضحة يعترف بها .

١٠ — يجب أن تعطى شعوب النمسا والمجر — التي نريد أن نرى مكانتها بين الأمم مصونة وثابتة — خير الفرص

ليسير تطورها فى طريق الحكم الذاتى .

١١ — يجب الجلاء عن رومانيا والصرب والجبل الأسود ، وأن تعود إليها الأراضى المحتلة ، وأن يعطى للصرب منفذ إلى البحر يكون حراً آمناً ، وأن تقرر العلاقات بين دول البلقان بمناقشات ودية على أسس القومية والولاء المعترف بها تاريخياً . كما يجب أن تعطى دول البلقان المختلفة ضمانات دولية للمحافظة على استقلالها السياسى والاقتصادى وسلامة أراضيها .

١٢ — يجب أن يضمن الاستقلال الثابت لأجزاء الإمبراطورية العثمانية الحالية التى أغلب سكانها من الأتراك . وأما الأقوام الآخرون الخاضعون الآن للحكم التركى ، فيجب أن يضمن لهم أمن على حياتهم لا شك فيه ، وأن تعطى لهم فرصة مطلقة لا يجدون فيها ما يعوقهم عن بلوغ استقلالهم . وأما الدردنيل فيجب أن يظل مفتوحاً ويصير ممراً حراً لسفن جميع الأمم وتجارتها فى ظل ضمانات دولية .

١٣ — يجب إنشاء دولة بولندية مستقلة تضم داخل حدودها الأراضى التى يسكنها البولنديون الذين لا شك فى جنسيتهم البولندية ، وأن يضمن لهذه الدولة منفذ حر آمن إلى البحر . كما يجب أن يضمن لها استقلالها السياسى

والاقتصادى وسلامة حدودها بمعاهدة دولية .

١٤ — يجب إنشاء جمعية عامة من الأمم بمقتضى معاهدات محددة صريحة لكى تضمن الاستقلال السياسى وسلامة الحدود لجميع الدول صغيرها وكبيرها على السواء .

ولم يكن ولسن بالرجل الوحيد الذى حلم بالعالم الذى أشار إليه فى برنامجه . فقد حلم به كثيرون من قبله ، وكان غيرهم لا يزالون يحلمون به وقتذاك . لقد حلمت به وتمنته العامة فى أمم كثيرة وكان فى الاستطاعة أن يتحقق الحلم .

أما لماذا لم يتحقق هذا الحلم فأمر يطول شرحه هنا ، إذ ليس فى وسعنا أن نكتب عن كل ما حدث فى مؤتمر فرساى من مساومات ومخاصمات . كلا ، ليس فى وسعنا أن تكتب عن جميع الأسباب التى أدت إلى الفشل . فإن شئت أن تقول إنه على عاتق الولايات المتحدة يقع بعض اللوم أو كثير منه بسبب هذا الفشل ، فسوف لا نجادلك فى ذلك؛ فإن ودرو ولسن كان رجلاً عظيماً ومثالياً يحلم بالمثل العليا ، ولكنه أهمل بعض النواحى العملية الضرورية لتحقيق حلمه، فهو لم يدع زعماء حزب المعارضة فى الولايات المتحدة ليجتمعوا معه فى مؤتمر حتى يضمن معاونتهم، ولم يشرح للشعب الأمريكى شرحاً كافياً مصلحته الحقيقية فى مثل هذه العصبة العالمية التى اقترحها . ولذا قام أناس صغار

النفوس أنانيون وحالوا دون اشتراك أمريكا فى العصبة ، وبذلك أدخلوا الأسى فى قلب ولسن فمات شهيداً ، لا شهيد معتقداته فحسب ، بل شهيداً قضى نحبه فى سبيل كل رجل فى العالم يتوق إلى السلام والطمأنينة والحرية . وقد أشار قبل موته إلى هزيمته وفشله فقال « إننى واثق من أن مبدأنا سينتصر آخر الأمر بقدر ما أنا واثق من أن لله الملك » .

ولما نقص نفوذ ولسن كثرت المناداة مرة أخرى « بالعزلة » الأمريكية ، وظل الأمر كذلك حيناً من الدهر . غير أن صناعة الطائرات كانت مستمرة فى النمو ، وارتقى فن الطيران ، وأخذت المسافات بين أجزاء الأرض النائية تنكمش انكماش قطرات الماء فى أيام الصيف . وظلت الولايات المتحدة راغبة فى السلام ، فدعت فى سنة ١٩٢١ إلى عقد مؤتمر لنزع السلاح . وفى سنة ١٩٢٨ كانت أول من مهد الطريق لمعاهدة كيلوج وبريان Kellogg-Briand Treaty تلك المعاهدة التى نددت بالتجاء الأمم إلى الحرب . ولكن صناعات الطائرات استمرت فى نموها واستمرت الطائرات فى طيرانها . وقامت النظم التى لا تطيق الحرية فداست على حقوق الإنسان وأخذت تنمو وتقوى فى بلاد المحور .

ولكن ما إن اشتد ساعد النازية فى ألمانيا ، وقوى فى اليابان الحزب الحربى القائل بالقوة والاعتداء ، حتى ظهر للعيان أن

الولايات المتحدة سوف تواجه أخطر أزمة مرت بها منذ سنة ١٧٧٦ . وقد كان لاندفاع أمم المحور فى الطريق الدكتاتورى تأثير فى جميع أمم العالم بأسره . وكانوا يصرون على ما يقولون : لقد قالوا إنهم عازمون على أن يكون فى الدنيا شعوب سيدة وأخرى مسودة ، لقد قالوا فعلاً إنهم لا يطيقون أن يدعوا الولايات المتحدة تظل معقلاً للحرية فى عالم خيم عليه الظلام وأذلته العبودية . والأمريكيون — مهما كانت عيوبهم — قوم على جانب من حسن الإدراك ، يعرفون العبودية حين يرونها ، ويعرفون الدكتاتورية ويمقتونها ، ويعرفون معنى التهديد ولا يستطيعون عليه صبراً ، ولا يحجمون عن القتال عند الحاجة .

وها نحن أولاء — سكان الولايات المتحدة — قد اشتبكنا مرة أخرى فى الحرب ؛ فاليابان هاجمتنا غدراً فى بيرل هاربور Pearl Harbor وقد هددتنا ولاطفتنا وهاجمتنا ألمانيا وإيطاليا وحلفاؤهما . وبذلك اشتبكنا مرة أخرى فى الحرب . فليوقن كل إنسان أننا سنخوض غمار هذه الحرب حتى نهايتها . وسنُلقى فى هذا القتال بكل ما تنتجه مصانع الولايات المتحدة وبكل رجل يمكن تجنيده . ومهما تطل سنوات الحرب ، وحتى لو صارت تضحياتنا أكثر منها فى أى عهد سابق ، فإننا سنستمر فى الحرب إلى أن تُسحق حكومات المحوريين سحقاً ، وينمحى ذكر دكتاتورياتهم

من أذهان البشر، ويحل الدمار بما لهم من القوى الحربية فى البر والبحر. وكما أننا لم نتحمل أن نعيش فى أمة بعض أهلها عبيد وبعضهم أحرار، كذلك لا يمكننا أن نعيش فى عالم بعض سكانه أحرار وبعضهم عبيد.

إن هؤلاء الذين يضطهدون إخوانهم فى الإنسانية اليوم لن يقووا على اضطهادهم طويلاً. فهاهم أولاء واقفون على حافة الهاوية وجيوشهم تسير إلى الهلاك. وها هى ذى أقدامهم تسوخ فى الأرض وحبل المشنقة يعد لأعناقهم. لقد تفاخروا بأنهم لا يُغلبون ولا يقهرون، ولكن شمسهم مالت إلى الغروب، ولم يبق لتفاخرهم وطغيانهم سوى وقت قصير. فالرجال الأحرار، رجال الأمم المتحدة، سائرون فى الحرب إلى الأمام قدماً، وقد بدأ نجم الحرية يتلألأ فى السماء. فدع أولئك الذين يمالئون الاستبداد والذين يخادعون ويتخذونه ملجأ يفعلون ذلك على مسئوليتهم، فسوف يقدمون حساباً على أعمالهم فى وقت قريب. أما الذين يحبون الحرية ويعتزون بالسلام والعدالة، فدعهم يضعوا أيديهم فى أيدينا وسنرحب بهم كما لو كانوا إخوة لنا من الأرحام.

وماذا بعد الحرب ؟

لقد حاولنا فى هذا الكتاب الصغير أن نطلعك على شىء من صفاتنا كشعب ، على شىء من الولايات المتحدة وما تؤمن به من مبادىء ، وكيف نمت هذه الولايات وما هى الطرق التى تسلكها فى الحياة . لم تأت على تاريخنا كله ، وتركنا سجل أعمالنا على حاله دون أن نعطيه أى طلاء من البريق الخلاب . وقد ذكرنا محاسننا ، وبذلنا الجهد لنقول الحق فيما نعتقده من الأمور .

غير أن هناك سؤالاً واحداً ، لا يزال باقياً ، سؤالاً خطيراً ، لا بد يجول بخاطرنا ، بل ربما يشغل خواطر الأمم الأخرى . ذلك هو « ما الذى تريده الولايات المتحدة بعد أن تنال الأمم المتحدة نصرها المحتوم على المحور ؟ ما أغراضها ؟ وما نياتها ؟ وما الأهداف التى ترمى إليها لإنشاء عالم الغد ؟ »

إن الولايات المتحدة لا ترغب فى أن تشيد لنفسها إمبراطورية عالمية ، ولا تريد أن يكون لها شعوب تسودها ، كما لا تريد أن تكون الشعب السيد . فكل هذه أمور لا تتفق مطلقاً والفكرة الأمريكية ، وطريقة العبادة الأمريكية ، وتاريخ الشعب الأمريكى وتطوره .

وغاية الولايات المتحدة هى السلام لا الحرب ، سلام الأحياء لا سلام الأموات ، سلام عالم الناس الأحرار لا سلام السجون . إنها تؤمن بأن للانسان كرامة وقيمة كبيرة ، كما تؤمن بضرورة إنشاء عالم جديد للبشر أجمع .

وها هى ذى الولايات المتحدة قد صرحت بالأسس التى يجب أن ينبى عليها عالم ما بعد الحرب . وهى الحريات الأربع : حرية الكلام ، وحرية العبادة ، والتحرر من العوز ، والتحرر من الخوف . وليست هذه الحريات مقصورة على الأمريكيين فقط ، بل هى للناس جميعاً أينما يكونوا .

وقد وضعت باتفاقها مع بريطانيا العظمى بعض المبادئ التى تضمنها ميثاق الأطلنطى . وها هو ذا نص الميثاق :

« إن رئيس الولايات المتحدة والمستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ممثلاً لحكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة ، يريان عند اجتماعهما أنه من الموافق أن يعلنا بعض المبادئ المتفق عليها فى السياسة القومية لكل من قطريهما ، وهى مبادئ يبنيان عليها ما يرجوان من مستقبل للعالم أحسن مما هو فيه .

١ — إن قطريهما لا يطلبان توسعاً فى الأراضى أو فى غيرها .

٢ — يرغب القطران فى ألا يريا تغييرات إقليمية لا تتفق مع الرغبات الحرة للشعوب التى يعنيها الأمر .

٣ — إنهما يحترمان حق جميع الشعوب فى اختيار شكل الحكومة التى يعيشون فى ظلها ، ويرغبان فى إعادة حقوق السيادة القومية والحكم الذاتى إلى الشعوب التى سُلبت منها هذه الحقوق .

٤ — إنهما ، مع مراعاة التزاماتهما الحالية ، سيبذلان الجهد كى يتاح للدول جميعها — كبيرها وصغيرها ، ظافرها ومقهورها — أن تنال ، بشروط متساوية ، ما تحتاج إليه لنجاحها الاقتصادى من التجارة والمواد الخام فى العالم .

٥ — إنهما يرغبان فى الوصول إلى أتم تعاون بين جميع الأمم فى ميدان الاقتصاد حتى يحصل الجميع على ما يرفع مستوى العمال ، ويصلح حالهم الاقتصادية ، ويؤمن حياتهم الاجتماعية .

٦ — إنهما يرجوان — بعد القضاء النهائى على الطغيان النازى — أن تتوطد دعائم سلم تتوافر به لجميع الأمم وسائل الإقامة فى أمن ضمن حدودهم ، ويضمن لجميع الناس فى كل بقاع العالم حياة يقضونها متحررين من الخوف والعوز .

٧ — يجب أن يمكّن هذا السلم كل إنسان من أن يعبر البحار والمحيطات بدون أى عائق .

٨ — إنهما يعتقدان أنه يجب على جميع أمم العالم أن تصل إلى الإقلاع عن استعمال القوة لأسباب واقعية وأخرى روحية .

ولما لم يكن فى الإمكان المحافظة على السلم فى المستقبل إذا ظلت الأسلحة البرية أو البحرية أو الجوية تستعملها الأمم التى تهدد — أو قد تهدد — سواها بالاعتداء ، فهما يعتقدان فى وجوب تجريد هذه الأمم من سلاحها إلى أن يقوم نظام أشمل وأثبت لتوطيد السلام العام فى العالم . وسيساعدان ويشجعان فى نفس الوقت جميع الوسائل الأخرى الفعالة التى تخفف عبء الأسلحة الساحق الملقى على عاتق الشعوب المحبة للسلام . »

وليس ميثاق الأطلنطى فى قداسته بالوصايا العشر ، ولا حكماً لا ينسخ ، ولكنه يبين بوضوح أن غاية الولايات المتحدة هى التعاون بين الأمم ، لا قهر الأمم الأخرى .

وقد قال هنرى والاس Henry Wallace النائب السابق لرئيس الولايات المتحدة عن السلم المقبل « يجب أن يجلب السلم للرجل العادى مستوى أحسن للمعيشة ، لا فى الولايات المتحدة وإنجلترا فحسب ، ولكن فى الهند وروسيا والصين وأمريكا اللاتينية أيضاً ، لا فى بلاد الأمم المتحدة فحسب ، بل فى ألمانيا وإيطاليا واليابان أيضاً .

« لقد تكلم بعضهم عن « العصر الأمريكى » ولكنى أقول إن هذا العصر الذى بدأنا ندخل فيه ، العصر الذى سينتج عن

هذه الحرب ، هو عصر يمكن ، بل يجب ، أن يدعى عصر الرجل العادى . نعم ربما يتاح لأمريكا أن تقترح الحريات والواجبات التى ينبغى أن تقوم عليها حياة الرجل العادى، يجب أن يتعلم هذا الرجل — أين كان — كيف ينشىء صناعاته بيديه بطريقة عملية، ويجب أن يتعلم — أين كان — كيف يزيد من قوة إنتاجه حتى يتمكن هو وذريته يوماً ما من أن يعيدوا إلى المجتمع العالمى ماتسلموه منه . ولن يكون لأمة ما « حق إلهى » يخول لها استغلال الأمم الأخرى . وسيتاح للأمم القديمة أن تساعد الأمم الحديثة على السير فى الطريق الصناعى ، ولكن بشرط ألا يكون هناك استعمار حربى أو اقتصادى ، فإن أساليب القرن التاسع عشر قد أصبحت غير صالحة لهذا العصر « عصر الشعب » الذى أوشك أن يطلع فجره . وإن لسكان الهند والصين وأمريكا اللاتينية لنصيباً عظيماً فى هذا العصر . فحينما تلم جماهيرهم بأصول القراءة والكتابة وحين يصبح منهم الميكانيكيون الماهرون يرتفع مستوى معيشتهم إلى مثلين أو ثلاثة أمثال . فالعلم الحديث إذا تحول بكليته لخدمة المصلحة العامة ظهرت منه قوى لم نحلم بها حتى الآن . »

إنه لمن المستطاع إنشاء عالم كهذا . ولكن لا يمكن أن تنشئه دول المحور إذ ليس هو العالم الذى يرغبون فيه ، ولن يستطيعوا إنشاءه لأنهم يعيشون بالحرب والخوف ويتخذون العلم آلة للحرب

والتخويف لا لخدمة السلام . أما فى الولايات المتحدة فإننا لا نرى العلم إلا خادم السلام وساعده الأيمن . وقد بدأ علماؤنا — حتى فى أيام الحرب العصيبة هذه — يبتكرون أشياء جديدة لم يحلم العالم بها من قبل وسوف تكون فى خدمة البشرية وعونها . وفى إمكان هؤلاء العلماء أن يفعلوا ذلك لأنهم أحرار فى تفكيرهم وفى نظرهم إلى المستقبل .

وإننا ندعو إلى جانبنا جميع الأحرار — رجالاً ونساء — أين كانوا — ليساعدونا على بناء هذا العالم . ندعو إلى جانبنا جميع الحزانى والمظلومين والذين يكرهون الطغيان ويحاربونه . ندعو إلى جانبنا كل أولئك الذين يودون أن يروا أطفالهم أحراراً .

لقد قال أعداؤنا إن هذه الحرب تقرر مصير الإنسان لألف سنة قادمة . ونحن نؤمن على هذا . إن وراءنا ثلاثمائة سنة من التاريخ ، ثلاثمائة سنة من إيمان بالحرية وحقوق الإنسان . ولم يكن هذا الإيمان حلماً خيالياً ، فقد بلغنا به مكانة سامية بين الأمم . لذلك نحن نرعاه فى قلوبنا ، ونحن ننجح به ، ونحن نحيا ونموت عليه ، وسنحارب من أجله إلى النهاية . وإننا لنعلم كيف نحارب ، فلدينا الآلات الميكانيكية ، والرجال ، والأدمغة ، والمهارة ، والقوة ، ولدينا الغذاء والبترول ، والصلب ، والمعادن الأخرى . وإذا استلزم النصر أن ننتج مائة ألف طائرة فى سنة

فسننتجها . و إذا احتاج الأمر لأن ندرب كل مواطن على استعمال السلاح وصناعة الأسلحة والمهن الأخرى التى تؤازر قوتنا الحربية ، فسوف نفعل ذلك . و إذا دعت الحال أن نخترع من الآلات الجهنمية ما هو أشد فتكاً مما عرف حتى الآن ، فسوف نفعل ذلك . فهذه حرب حتى النهاية . وقد عقدنا العزم على أن نصل بها إلى النهاية . وسننهيها بشكل يجعل أبناءنا وأبناء جميع العالم أحراراً لا يرون للطغيان شبحاً ولا يخشون وقوع حرب عالمية جديدة .

هذا هو ما نسعى إليه . وهذا ما يرمز إليه علمنا . إنه يرمز للحرية ويرمز للرجاء . إنه يرمز لحسن الجوار لا للسيادة على الآخرين . إنه يرمز إلى أن يقرر الناس مصيرهم و يحكموا أنفسهم بأنفسهم . إنه يرمز إلى أناس يحبون السلام ، فإذا اعتُدى على بلادهم هبوا يقاتلون المعتدين بغضب من غضب الله . إنه يرمز لأمة وشعب يؤمنون بالإنسان ، و يؤمنون بمستقبل الإنسان ، وبالعالم الحر الذى يستطيع الإنسان أن ينشئه .

